

ABD AL-GHANI HASAN
AL-TARAJIM WA-AL-SIYAR

CT
21
. H3
c. 1

2258
437
1955

BOBST LIBRARY

3 1142 02687 7541



NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

فنون الأذب العربي

الفن القصصي

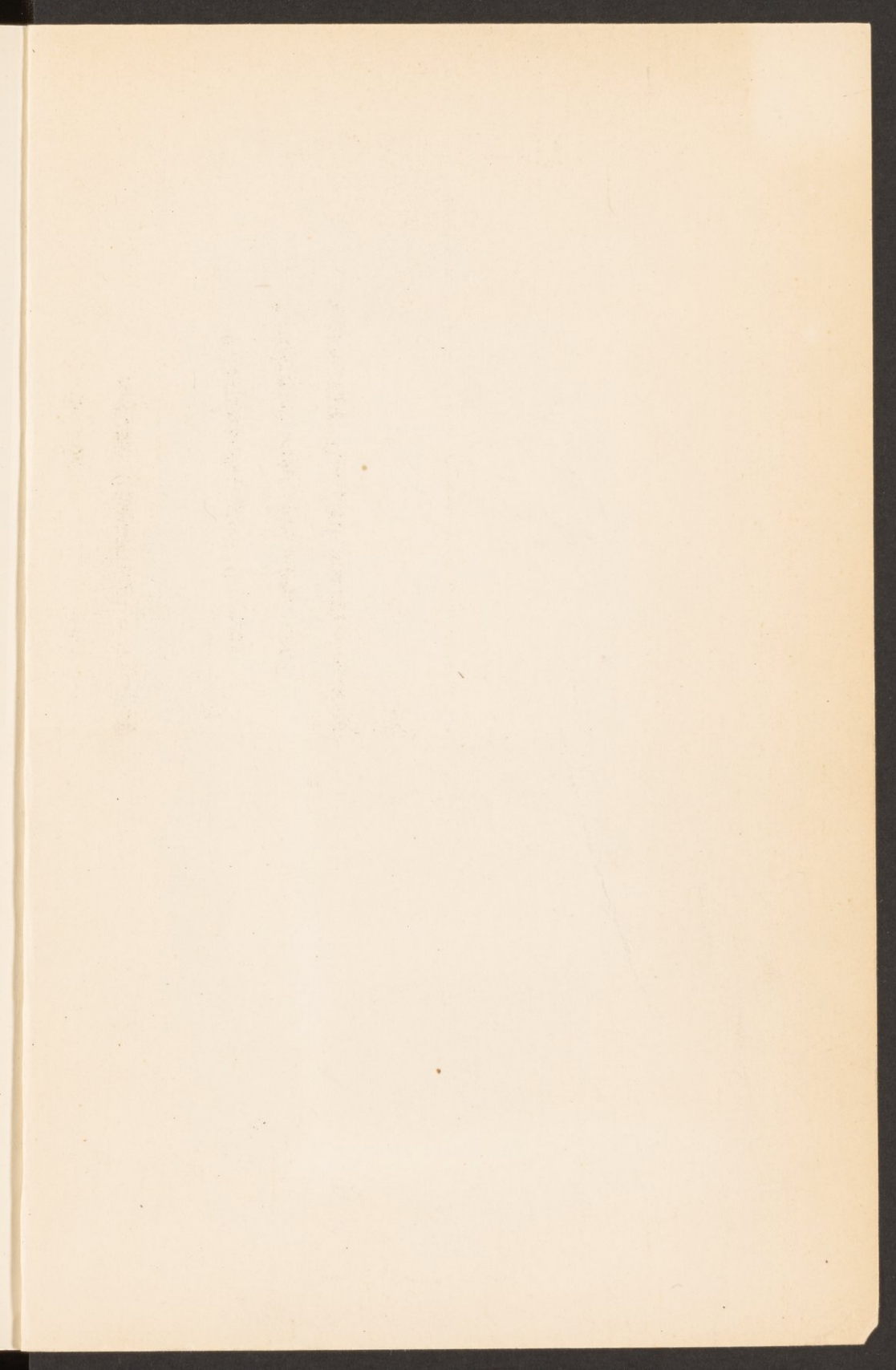
٢

التراجم والسيرة

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف



التراجم والسيرة

مكتبة
الملك

Hasan, Muhammad 'Abd al Ghani

NE66-555 rev

UAR 6190

فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٢

al-Tarājim wa-al-siyar.

التراجم والسيرة

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

2258
.437
.1955

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّهِمْ فَسَمِعَ

7 -

Near East

CT

21

.H3

c-1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

5-26-61 044

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَدِمَةٌ

لم يكتب إلى اليوم - فيما نعلم - كتاب يعالج موضوع التراجم والسير في الأدب العربي ، على الرغم من جلال هذا الموضوع وخطره وشدة اتصاله بتطور تلوين التاريخ الإسلامي ، من المغازي والسير ، إلى السيرة النبوية ، فكتب الطبقات التي لم تدع صاحب علم أو فن أو صناعة إلا عنيته بالترجمة له ، حتى كان التراث العربي في هذا الباب أغنى وأوسع من مذخور التراث عند الغربيين .

ولحق أن العرب والمسلمين قد عنوا أشد العناية بتراجم رجالهم ، وطبقات علمائهم ، وتوفروا على ذلك الفن ، وافتنوا في تبويبه وترتيبه على أنحاء سيجدها القارئ في هذا الكتاب ، حتى لقد بلغت بهم العناية والتحنى في ذلك أن ألفوا كتباً في تواريخ البلدان ، يؤرخون فيها لنشئها وعمرائها وتطورها وفتحها وآثارها ، ثم يفيضون بعد ذلك في التراجم لأهل هذا البلد ، ممن ولدوا فيه أو نشأوا به أو وفدوا عليه ، وكان لنا من ذلك كتابان جليلان هما « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، و « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، وهما من أوسع الكتب في التراجم الإسلامية ، حتى لقد اجتمعت فيهما حضارتا العرب في العراق وفي الشام ، والتقت فيهما صورة رائعة من المجتمع الإسلامي الذي كان هؤلاء الرجال المترجم لهم يروحون فيه ويغدون ، ينشرون علماء ، ويبعثون حضارة ، ويصطرعون في الآراء والأفكار ، فتكون من هذا الصراع حياة أمة بأسرها .

ولم تكن الترجمة لرجال البلدان حظ العواصم الإسلامية الكبرى وحدها، مثل بغداد ودمشق وحلب وقرطبة وغرناطة والقاهرة وغيرها، بل توفر كثير من كتاب التراجم على الترجمة لغير الحواضر، فاجتمع من ذلك ما لم يجتمع لحضارة أخرى. وإذا كان بعض كتاب التراجم قد لجأوا إلى طريقة ذكر الإسناد في الروايات التاريخية فضخموا بذلك مادة كتبهم وحشدوها بما لا يتصل بسير المترجم لهم، فإنهم من ناحية أخرى قد وكدوا لنا هذه الأخبار بسندها، كما صنع المحدثون في الحديث، وإن كانوا قد تخلصوا بعد ذلك من عننة الأخبار وأسانيدها، وذكروها مجردة، اطمئناناً إلى ما فعله المصنفون الأولون.

وإذا كان من الحق أن نقول إن كتاب التراجم لم يعنوا بالنقد والتحليل والتعليل في ترجمة الرجال أكثر مما عنوا بسرد أخبارهم، وذكر آثارهم، ونقل بعضهم عن بعض حتى لتكاد تتشابه العبارات في مصادر الترجمة، فإن من الحق أيضاً أن نقول إن هذه التراجم الكاثرة قد حفظت لنا كثيراً من أخبار المترجم لهم وملابساتهم حياتهم، مما لا يصعب معه على كاتب التراجم الحديث أن يخرج صورة واضحة للشخصية التي يريد أن يترجم لها. فهذه المادة الغزيرة من المعلومات والأخبار والحوادث الصغيرة والكبيرة، التي حفظتها لنا كتب التراجم والطبقات في القديم، هي المواد التي يؤلف المصور من مجموعها صورته. وهنا يختلف مصور عن مصور، ويمتاز كاتب من كاتب. فالعبرة في «تركيب» الصورة - أو الشخصية المترجم لها - من هذه المواد المتفرقة المبعثرة.

ولم يغفل الأدب العربي كتابة «السير» وهي بعينها «التراجم» مطولة «مستقلة»، كما في «سيرة الرسول» لابن هشام برواية ابن إسحاق، وكما في سيرة «عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي، وكما في «سيرة ابن طولون» للبلوي، وكما في «سيرة صلاح الدين الأيوبي» لابن شداد. إلا أن السير لم تبلغ في الأدب العربي ما بلغت التراجم كثرة وتنوعاً.

ولم يقف العصر الحديث وقفة الحمد في فن له في الأدب العربي أقدم مكان ، فتأثر كتاب التراجم العربية اليوم بطرائق الغربيين ومذاهبهم في التحليل ، وتجلية العوامل النفسية والبيئية ، ودراسة عصر المترجم له دراسة يتجلى فيها مدى الاستجابة بين الرجل وظروف زمانه ، ومعارضة الروايات بعضها ببعض حتى يبدو الحق على وجهه ، ورعاية الفنية الأدبية في العرض ، على أن لا يكون ذلك على حساب الحقيقة التاريخية أو الدقة في الصورة .

وراح جماعة من الأدباء المحدثين يكتبون سير الراحلين من رجالات المسلمين على نهج جديد .

وبين كتب الطبقات والتراجم الأولى ، والسير والتراجم في عصرنا هذا ، يمتد تاريخ مشرق حافل طويل ، لبضعة عشر قرناً في هذا الفن الأدبي التاريخي الذي أرجو أن أكون وفقت في عرضه — على ضيق المجال — بما أعده من أبحاث المحاولات ، ليستدرك بها غيري ما فات ، والله الموفق .

محمد عبد الغنى حسن

الفصل الأول

التراجم ونشأتها

التراجم في القديم والحديث - التراجم بين العلم والفن -
نشأة التراجم في الأدب العربي والداعي إليها - التراجم الذاتية .

التراجم في القديم

التراجم هي ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفاً يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح تبعاً لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة ، وتبعاً لثقافة المترجم - أي كاتب الترجمة - ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه عن المترجم له .

وكلما كانت الترجمة - في قسميها الذاتي والغيري - أكثر أناقة وعناية بالثوب البلاغي الذي تلف فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ . إلا أن الإسراف في الصورة الأدبية التي يعرضها المترجم ، والمبالغة في الفن الأدبي والروائي الذي يضيفه المترجم على الشخصية التي يترجم لها قد يبعده كثيراً عن الحقيقة والواقع الذي يجب أن يهدف إليه ، والذي يجب أن لا يضيع لاعتبار يتعلق بزخرف العبارة أكثر مما يتصل بلب الموضوع . وما يذكر هنا على سبيل المثال في التراجم الأوروبية تراجم فروود Froude المؤرخ الإنجليزي في القرن الماضي ، والذي كان صديقاً لكارليل ومترجم حياته . وقد بلغ من إسرافه في الروائية أن آثاره تعد هامة في الأدب الإنجليزي ولكنها لا يعتمد عليها من وجهة الحقيقة التاريخية .

ومهما قيل في الفرق بين الروائي والمترجم - من حيث القدرة على إظهار الرجال على حقيقتهم - ومهما كان من خلاف في الرأي بين أندريه موروا كاتب التراجم الفرنسي المعاصر ، ومستر فورستر الروائي من أهل جيلنا هذا ، فإن فن التراجم يحتاج إلى قلب لا بأس به من الفنية الروائية التي يظهر بها الأشخاص وكأنهم أحياء يتحركون على مسرح الحياة ، ويغدون ويروحون بما يختلج في نفوسهم من نوازع الإنسان الخيرة والشريرة التي تتم بها صورة الكائن الإنساني الحي .

والترجمة للأشخاص قديمة قدم الإنسان نفسه ، ولا شك أنها ظهرت مع الكتابة في الأمم التي عرفت الكتابة واستخدمتها في مسائل حياتها ، أو في مسائل الترف العقلي الذي يجيء بعد استكمال الضروريات . وكثيراً ما تأتي الترجمة مع التاريخ موازية له في النشأة ، لأنها في الحقيق نوع من التاريخ للرجال على نسق معين . فلقد كان عند الإغريق مؤرخون من طراز يذكره التاريخ بالفخر ، كما كان عندهم كتاب تراجم لا يدعون حيوات العظماء تمر من غير تسجيل لها ، أو تصويرها لأغراض ودوافع من السياسة أو الخلق أو القدوة التي يسعى لها المثاليون. فما كتب بلوتارك كتابه في « سير عظماء اليونان والرومان » إلا ليكون أمثلة واقعية للحياة التي يجب أن يكون عليها رجل السياسة ورجل الدولة ، كما وضع أرسطو كتابه « الأخلاق » ليكون تمهيداً لا بد منه لكتابه المشهور في « السياسة » . وما كتب سويتينيوس كتابه في « حياة الاثنى عشر إمبراطوراً رومانياً » إلا ليكون نموذجاً لحياة هؤلاء الأباطرة السابقين في تاريخ الرومان .

إلا أن كاتب التراجم قد يكون مدفوعاً بعوامل شخصية أو صلات من القرابة والصحف ، كما فعل تاسيتس المؤرخ الروماني مع حميه القائد الروماني أجريكولا في القرن الأول الميلادي ، فقد اجتمع للمؤرخ عاملاً الإعجاب والمصاهرة ، فكتب كتابه « حياة أجريكولا » الذي يعد نموذجاً للتراجم والسير في الأدب القديم .

وظلت أوربا عقيماً في كتابة التراجم منذ عصور الظلام التي تخيمت عليها في القرون الوسطى ، على حين أخذ التاريخ الإسلامى يأخذ مكانه في الوجود كما أخذ الإسلام - دين العرب وغير العرب - يظهر في كل أرض استظلت بلواء الإسلام . وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثانى للهجرة ، ثم أخذت على توالى العصور تكثر أنواعها ، ويتضخم عددها ، حتى بلغت من الكثرة في التراث العربى حداً لم تبلغه في أى تراث لأمة أخرى معروفة التاريخ في القديم والحديث . وليس هذا الكلام يلقى هنا من غير تدليل ولا تمثيل . فقد ظلت إنجلترا مثلاً - على رسوخ قدمها في فن التراجم - معطلة في هذا الباب عشرات من القرون ، إلى أن ظهر صمويل بيبس ١٦٣٣ - ١٧٠٣م فكتب يومياته ومذكراته التي يعدونها أول خطوة في كتابة التراجم الذاتية وما تلاها من أنواع التراجم . وظلت فرنسا كذلك إلى أن ظهر في القرن السابع عشر أيضاً المؤرخ ريتز فكتب مذكراته سنة ١٦٧٢ .

فحين بدأ فن التراجم يظهر في إنجلترا وفرنسا بصورة ساذجة كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حداً من الكثرة والتنوع وسعة المجال والافتنان في موضوعات التراجم لا يقاس به بداية غير منتظمة الخطى في الآداب الأوربية . ففي القرن الثانى عشر الميلادى كان كتاب « الاعتبار » للفارس العربى المسلم أسامة بن منقذ ٤٨٨ - ٥٨٤ هـ يعد نموذجاً عالياً للمذكرات والتراجم الذاتية قبل أن يكتب بيبس الإنجليزى وريتز الفرنسى مذكراتهما بقرون . وفي القرن نفسه كان الشاعر عمارة اليمنى يؤلف كتاب « النكت العصرية » ويترجم فيه لنفسه كما يترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم في أخريات العصر الفاطمى . وفي القرن الثالث عشر الميلادى كان كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ يسجل كسباً رائعاً في ميدان التراجم للرجال على اختلاف ألوانهم وثقافتهم ، فعلى حين كان يزهى مؤرخو الآداب بكتاب بلوتارك الذى جمع فيه

ستاً وأربعين ترجمة إغريقية ورومانية كان كتاب ابن خاكان يفيض بقراءة ثمانمائة ترجمة جمعت إلى ضبط الوفيات الدقة في الترجمة ، مع تقديم كل ما يعين من المعلومات على تكوين صورة صحيحة للمترجم له في غير إسراف ولا تهويل .
 وحين ظهرت في إنجلترا مجموعة التراجم التي تعد على أصابع اليد ، والتي كتبها إيزاك والتون في القرن السابع عشر كانت كتابة التراجم قد بلغت قممها في الآداب العربية قبل ذلك بزمان طويل في أنخريات العصر العباسي وفي العصرين المملوكي والعثماني ، وظهرت تلك المجموعات الرائعة من كتب التراجم التي تترجم للرجال على اختلاف طبقاتهم ، وتترجم للقرون مائة فائمة ، وتترجم للبلدان وأعلامها ، وتترجم لألوان من الناس تجمعهم صفة واحدة - كتراجم العميان ، أو تراجم المسمين باسم متفق - وتفتن في ترتيب التراجم بما سنتناوله بالتفصيل فيما يلي .
 والحق أن التراجم العربية الإسلامية قد فاقت - من حيث كثرتها وتنوعها وافتنانها في ترتيب الأعلام المترجمة ، وافتنانها من حيث تبويب موضوعات التراجم والاهتمامُ بها حتى في كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية ، والترجمةُ لأعيان كل بلد أو كل مدينة في كتاب واحد ، والترجمةُ لأعلام النساء بجانب أعلام الرجال ، وتحقيق الوفيات والموايد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية ، والاستشهاد بآثار المترجم لهم في النثر والشعر ، وضبطُ الأعلام وتحقيق المتشابه منها - قد فاقت في كل ذلك غيرها من التراجم في الآداب الأخرى في القديم والحديث .

فما عرفنا في تاريخ التراجم العالمية عناية بضبط الأعلام كما في كتب التراجم العربية ، حتى لقد ألفت في ذلك كتب كثيرة قائمة بذاتها سنعرض لها في فصل مقبل . وإذا كان للكتابة العربية وطريقتها في القديم يد فيما طرأ على الأعلام من وهم أو اشتباه مثل أعلام الشعراء : حباب ، جناب ، خباب ، فإن كتاب التراجم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه المشكلة الطارئة من رسم الحروف ،

فوضعوا كتباً ومعاجم للتراجم تزيل الوهم ، وتصحح الاسم ، كما صنع الآملى المتوفى سنة ٣٧٠هـ فى كتابه « المؤلف والمؤتلف » .

غير أن من تمام الحق فى قضية التراجم بين القديم والحديث ، وبين العرب والفرنجة أن نذكر هنا مع الإعجاب ذلك المنهج السوى الذى اصطنعه الأوربيون بأخرة من الزمان فى الترجمة للرجال . وقد أخذ ذلك المنهج يستقيم وتتضح معالمه منذ القرن الثامن عشر ، أو بعبارة أخرى منذ كتب جونسون كتابه « حياة الشعراء » ، ومنذ كتب بوزويل كتابه « حياة الدكتور جونسون » الذى يعده مؤرخو الآداب العالمية مفرداً فى بابهِ ، كما يعدونه رائعة من روائع التراجم على اختلاف العصور .

وأخذت التراجم والسير منذ القرن الثامن عشر تتأثر بالتطور العالمى الجديد فى ميادين السياسة والتجارة والصناعة . فسوت الديمقراطية بين الناس حين يترجم لصغيرهم وكبيرهم ، واختفت تلك النظرة المقدسة للملوك حين يترجم لهم على أنهم وحدهم هم الناس - أو فوق الناس ، واستحدثت أساليب جديدة فى التراجم توأم روح العصر وتطوره فى الكتابة والتفكير ، وساعد نمو الحاسة التاريخية على أن تكون الترجمة أو السيرة صورة صادقة للمترجم له تعتمد على أعماله وأقواله التى يكون مجموعها تاريخ حياته ، وظهرت منذ ذلك الحين روائع فى الترجمة ، « كسيرة جليج » لويلنجتون ، « وحياة نلسون » لسودى ، « وحياة ولترسيكوت » لوكهارت ، و « حياة شارلوت برونتى » لمسىز جاسكل ، و « الماكة فكتوريا » للمؤرخ ستراتشى الذى يعد أبا التراجم فى العصر الحديث ، والذى جمع فى طريقته بين التفسير التاريخى واللمسة الفنية ، و « بسمارك » و « نابليون » لأميل لدفيج ، و « حياة شيللى » و « بيرون » لأندريه موروا ، وله فى كتابة التراجم محاضرات ألقاها فى جامعة كبريدج سنة ١٩٢٨ وجمعت فى كتاب لا يستغنى عنه مؤرخ التراجم والسير فى العصر الحديث .

ولقد أخذت التراجم والسير العربية في القرن العشرين تنزع عنها أثواب القدم ، وتخرج عن ذلك النهج الرتيب الذي سارت عليه خلال عصور التاريخ الإسلامي ، وتجد في أساليب الفرنجة في ذلك الفن متجهاً تسير نحوه وتتابع خطاه ، ولم تعد الترجمة نقا لنصوص قديمة ، وجمعاً لطائفة من المعارف في غير تبويب ولا تحليل ولا تركيب . والحق أن العبرة ليست بجمع الحقائق عن المترجم له ، ولكن المهم هو عرضها آناق عرض والموازنة بينها في فن وحذق . وما أصدق سترتشي المؤرخ الإنجليزي وكاتب التراجم المشهور حين يقول : « من الواضح أن التاريخ ليس علماً ، ومن الواضح كذلك أنه ليس حشداً للحقائق ، ولكنه رواية لها . إن الحقائق التي تتصل بالماضي إذا ضم بعضها إلى بعض بغير فن فإنها لا تعدو أن تكون جمعاً وتصنيفاً ، والتصانيف بغير شك قد تكون ذات نفع ، ولكنها لا تسمى تاريخاً إلا إذا استطعنا أن نسمى مواد الزبدة والبيض والبقادونس طبقاً من العجة . . ! »

ولقد ظهر هذا التحول في كتابة التراجم في الأدب العربي الحديث في الثلث الثاني من هذا القرن ، فظهرت « العبقريات » وطائفة أخرى من التراجم للأستاذ عباس محمود العقاد ، وظهرت سير أبي بكر وعمر بن الخطاب للدكتور محمد حسين هيكل ، وظهر « عثمان » و « علي وبنوه » للدكتور طه حسين ، وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة ، تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع ، ولكنها تعرضها في طبق شهى غير الطبق الذي أشار إليه المؤرخ سترتشي . . ! وتحللها على أضواء من علم النفس ، وتبين في ذكاء ووعي أثرها في البيئة التي أخرجتها وأثر البيئة فيها ، وتصور العوامل الفعالة المشتركة بين المترجم له وعصره حتى يتضح أثر كل منهما في صاحبه .

واستقام النهج لكتاب التراجم العربية المحدثين حتى وهم يترجمون لحياة الفقهاء

والأئمة من رجال الدين ، فلم تعد الترجمة للإمام الشافعي مثلاً سردياً لأقوال العلماء والرواة فيه ، أو حشداً لمجموعة من أخباره أو رصفاً لطائفة من أقواله وآرائه ، ولكنها صارت دراسة لبيئة الإمام ، وفقهاً لمذهبه ، وتصويراً لحياته من خلال الأخبار المروية عنه ، وتحليلاً للظروف التي أحاطت به مولداً ونشأة وتعلماً ، ومدى أثرها في تقويم شخصيته ، وكسب خبراته ، ونشر مذهبه . وظفر فن التراجم العربية في هذا السبيل بطائفة طيبة من تراجم الأئمة للأساتذة الشيخ محمد أبو زهرة (١) ، وعبد الحلیم الجندی ، وأمين الخولي .

وقد فطن كتاب التراجم اليوم إلى أنه ليس من الضروري أن تكون حياة المترجم له مأساة حزينة المبدأ أو الختام حتى تكون الترجمة قطعة من الفن الجميل . وعلى الرغم مما قاله أسكار وايلد من أن حياة نابليون بوناپارت قد تكون حياة عادية خالية من الجمال لو لم تختم بهذا الختام المحزن في سانت هيلين ، وعلى الرغم من مأساة الحياة المضطربة العائرة التي عاشها أسكار وايلد فإن المترجم البارص الصناع قد يخلق بفضه الأدبي من الحياة العادية ترجمة رائعة لأناس لم تهزهم مآسى الحياة . وفي التراجم والسير العربية كانت حياة الشهيد على بن أبى طالب والشهيد الحسين عليهما السلام مثاراً لتراجم رائعة في الأدب الشيعى قديماً ، وعند طه حسين ، والعقاد ، وعبد الفتاح عبد المقصود في العصر الحديث ، ولكن هؤلاء لم يحتاجوا إلى مآسى حزينة ومصارع باكية ليترجموا لغير الشهيد من أمثال أبى بكر وعمر ونخالد بن الوليد .

والحق - مرة أخرى - أن حياة العظماء وحدهم ليست جديدة بأن تثير اهتمام كتاب التراجم والسير أكثر من اهتمامهم بالعاديين من الناس ، وقد غيرت النظرة

(١) للشيخ محمد أبو زهرة كتب في تراجم «مالك» «ابن حنبل» «الشافعي» «أبو حنيفة» «ابن تيمية» «ابن حزم» . وللأستاذ عبد الحلیم الجندی ترجمة طيبة لأبى حنيفة . وللأستاذ أمين الخولى ترجمة تحليلية للإمام مالك .

الديموقراطية من هذا الرأى ، وأصبح نصيب الرجل المواطن المكافح من الترجمة أوفى من نصيب الملوك والحكام فى العصور الوسطى . ولقد سبق كتاب التراجم المسلمون غيرهم فى هذا الباب ، فترجموا للملوك كما ترجموا للسوقة على حد سواء .. وترجموا للمبصرين كما ترجموا للعميان - كما فعل الصفدى المتوفى ٥٧٦٤ هـ - وترجموا للكرماء كما ترجموا للبخلاء - كما فعل الحافظ أبو بكر الخطيب . .

ومهما صغرت حياة المترجم لهم أو كبرت فإن الترجمة لا بد أن تأخذ حقها من التحقيق العلمى والبحث ومعارضة الأحوال والأقوال بعضها ببعض حتى يتميز الزائف من الصحيح . كما يجب أن تؤخذ أقوال الرواة بعين الاعتبار والوزن لما قد يكون فيها من ميل للمترجم له أو هوى معه أو تعصب عليه ، فإن الناس لا تتفق آراؤهم فى شخص معين ، كما أن تقديراتهم وتأثيراتهم قد تختلف لاعتبار أو لآخر . فى الترجمة للحجاج بن يوسف الثقفى يجب أن نكون على حذر مما يقوله خصومه فى الرأى ، فإن الخصومة قد تحمل على سوء الرأى فى الرجال . لقد حكم بعض المؤرخين على الحجاج بالكفر - وهى تهمة شنيعة - مع أن الرجل كان - على قسوته البالغة فى سفك الدماء - مؤمناً بالله ورسوله أشد الإيمان . وحكم عليه الخليفة الصالح الزاهد عمر بن عبد العزيز بالنفق فيما روى عنه أنه قاله : « لو جاءت كل أمة بمناقبيها وحثنا بالحجاج لفضلناهم ! »

وفى الترجمة للأمام أبى حنيفة النعمان يجب أن يتفطن المترجم أو المؤرخ إلى ما شنع به عليه خصومه وحساده لعصبية فيهم ، أو لخلاف بين أصحاب الرأى وأصحاب الحديث ، وقد كان أبو حنيفة من كبار رجال الرأى فى التشريع الإسلامى ، فلم يعجب ذلك أصحاب الحديث فقالوا فيه ما قالوا مما يجب أن يكون منه المترجم على حذر . ولقد ساق الخطيب البغدادى صاحب « تاريخ بغداد » كثيراً من الأقوال التى قيلت فى النيل من أبى حنيفة . ولكن المؤرخين والحفاظ وأصحاب السير لم يسكتوا أمام هذه الأقاويل ، فكشفوا عن قيمتها ومبلغها من

الصحة كما صنع الحافظ ابن عبد البر ، والإمام المؤرخ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ، والسيد مرتضى الزبيدي في « الجواهر المنيفة » .

وما أعجب تضارب الأقوال في الرجل الواحد وفي ناحية معينة منه بالذات ، مما يجب أن لا يخفى على الباحث العلمي المحقق في فن التراجم . فإن كاتب التراجم الإنجليزى « فرود » قد صور لنا — في ترجمته الفاتنة لكارليل — زوجته جين بصورة امرأة غير مفهومة من زوجها ، سيئة الحظ ، رقيقة العشرة ، مرغمة على أن ترضى أنانية زوجها ليظهر مجده أمام المعجبات به من النساء . . . على حين أن كاتبة التراجم « مس درو » قد صورت امرأة كارليل في كتاب لها بصورة الثرثرة ، السليطة ، اللجوج ، الكثيرة الخصام ، السطحية التفكير ، وصورت كارليل بصورة الزوج المخلص في الزوجية ، الحلو الطباع !

الحق أن اختلاف الرأى فى الناس والأشياء لا يزال فى القديم والحديث ، ولا يزال فى الشرق والغرب ، ولا يزال حين نترجم للأخبار والأشهر . وما أحوجنا حين نؤرخ للرجال ونكتب سيرهم أن نكون على جانب الاعتدال والحذر والنصفية ، فلا نميل إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

نشأة التراجم في الأدب العربي

تعد السيرة النبوية أوسع ما في التراجم الإسلامية ، وأقدمها ظهوراً ، وأولها باهتمام المؤرخين والكتاب ، فقد كانت المحور الذى تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره وانتشاره بالغزوات والفتوح . وسنعالج السيرة النبوية فى باب مستقل نظراً لمكانتها ومكانة صاحبها من نفوس العرب والمسلمين ، ونظراً للمكان الذى نزلته فى التاريخ والأدب ، بحثاً فيها وشرحاً لها ولأشعارها ، وتعليقاً عليها ، وتلخيصاً لها أو توسعاً فيها على مدى العصور إلى زماننا هذا .

ونشأت بجانب العناية بكتابة السيرة النبوية عناية كبرى بتدوين الحديث الذى لم يدون فى عصر الرسول خشية أن يختلط شىء منه بالقرآن فلا يعرف أحدهما من صاحبه . وقد كان تدوين الحديث عاملاً فعالاً فى خدمة كثير من العلوم التى ظهرت بجانبه لتخدم رسالته ، وكان من هذه العلوم المساعدة علم التاريخ ، فاتجهوا إلى الغزوات والفتوح وتواريخ الصحابة والوقائع بين على ومعاوية ، يسجلون أخبارها فى رسائل متفرقة كانت هى النواة الأولى لكتابة التاريخ الإسلامى المطول فيما بعد . وقد بلغ من عنايتهم بالحديث النبوى أنهم اتجهوا إلى الكلام فى رواته ورجاله ، فترجموا لهم تراجم وجيزة لم يكن القصد منها إلا بيان قيمة الحديث ومكانته من الإسناد ، وجرهم ذلك إلى وضع كتب فى نقد الرجال المحدثين ووزنهم بموازين دقيقة تجعلهم جديرين بحمل أمانة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوضعوا كتباً فى « الجرح والتعديل » ، فمن كان فى الميزان عدلاً فهو من المعدلين ، ومن كان مجرحاً انتقل التجريح منه إلى أحاديثه المجرحة . وهكذا خدمت هذه الكتب فى رجال الحديث فن التراجم ، ونهت الأذهان إلى أن توضع تراجم أخرى لطبقات من الرجال تنفق فى لون واحد من العلم أو الفن أو الصناعة ، كطبقات

الصحابة ، وطبقات المفسرين ، وطبقات الشعراء ، وطبقات النحاة وغيرهم .
 مما سنعرض له بالتفصيل في فصل مقبل .

ومن أقدم الكتب في هذا كتاب « تاريخ البخارى » المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، وقد جعله في ثلاثة كتب : كبير مرتب على الحروف ، وأوسط مرتب على السنين ، وصغير . وهو بالطبع غير كتابه « الصحيح » الذى جمع فيه طائفة من أحاديث الرسول تزيد على سبعة آلاف حديث كما ذكر المؤرخ ابن حجر .

وفى هذا العصر نفسه اشتغل عالم مسلم آخر بجمع طائفة من التراجم الإسلامية فى كتاب أسماه « الطبقات » ، وقد كان ابن سعد صاحب كتاب « الطبقات » المتوفى ٢٣٠هـ مصاحباً وكاتباً للواقلى المؤرخ المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، فاستفاد منه فى كتابة التاريخ ، إلا أنه خالفه فى المنهج ، فالواقلى يؤلف فى « المغازى » وفى « فتوح الشام » وغيرها من الفتوح الإسلامية ، وابن سعد يؤلف فى طبقات الصحابة والتابعين كتاباً ضخماً يعد من أقدم المصادر وأوثقها فى تاريخ الإسلام والمسلمين . إلا أنه يكتب فى السيرة النبوية وفى المغازى جزءين من كتابه ، على حين يجعل بقية الكتاب وفقاً على تراجم البدرين من الصحابة ، وتراجم الأنصار والمهاجرين ممن لم يشهدوا بدرأ ، وتراجم أهل مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين والكوفيين والبصريين .

ولم يغفل ابن سعد تراجم النساء الصحابيات فجعل لهن جزءاً من طبقاته . على أن العناية بالناحية الدينية وناحية رواية الحديث ، والصحبة للنبي عليه السلام والتبعية لصحابته لم تمنع قوماً آخرين من المؤرخين وكتاب الطبقات من الاشتغال بتراجم لغير الصحابة ولغير المحدثين ، فقد رأينا محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١هـ ، والذى كان معاصراً للبخارى وابن سعد ، يترجم لطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام فى كتابه المشهور « طبقات الشعراء » ، وقد جمع فيه بين أخبار عن الشعراء وبين مختارات من أشعارهم .

ولقد تأثر مؤلفوه هذه الطبقات والتراجم بطريقة المحدثين في رواية الأحاديث ، فهم لا يذكرون الخبر مجرداً ، وإنما يسندونه إلى رواته قائلين : حدثنا فلان عن فلان . كما كان يصنع أصحاب الحديث ، فهم متأثرون بهم في الإسناد إلى حد كبير . ولقد يزيد الإسناد وتعدد الأسماء فيه على الخبر نفسه . ولو أن أغاب كتب الطبقات هذه جردت من أسانيدها وأسماء رواتها لبلغت أقل من نصف الكتاب الأصلي بكثير . وإليك هذا الخبر من كتاب « طبقات الشعراء » : (أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابن سلام ، حدثني ابن جعدبة وأبو اليقظان ، عن جويرية بن أسماء قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاحتفلت قريش في جنازة كثير ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله) . وإذا كان في هذا الخبر دليل على كثرة الإسناد من ناحية ، ففيه من ناحية أخرى دليل على اهتمام الناس بالشعراء واحتفالهم بهم أحياء وأمواتاً ! ولعل هذا مما بعث ابن سلام على أن يؤلف كتاباً في طبقات الشعراء على حين كان معاصروه يهتمون بطبقات الصحابة والمحدثين .

وأخذت كتب التراجم والطبقات بعد ذلك تكثر وتنوع ويقوم بها المؤلفون بوحى من أنفسهم واستجابة لدواعي العلم ، لا تقرباً إلى وال ، ولا تزلفاً إلى أمير ، ولا إجابة لرغبة راغب ، أو طلب طالب ، كما حدث في العصور التالية وخاصة حين كثرت الدويلات والممالك الإسلامية ، فاضطر العلماء والمؤلفون إلى الوقوف بأبواب الأمراء يتلقون إشاراتهم بتدوين مؤلف معين في موضوع معين . وقد كثرت ذلك في العصرين الأيوبي والمملوكي . على أننا نجد في العصور المتقدمة من كتاب التراجم والطبقات من استجاب لرغبة الخليفة نفسه ، كما صنع أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩هـ في كتابه « طبقات النحويين واللغويين » ، فقد ذكر في مقدمته أن الخليفة الحكيم المستنصر بالله الأندلسي أمره بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ، ثم من تلاهم من

بعد إلى هلم جرا ، إلى زمانه ، وأن يطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم ، وأن يذكر — مع ذلك — مولدهم وأسنانهم ومدد أعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الإمكان في ذلك ، مع ذكر نتف من أخبارهم وفضائلهم ليكون ذلك شكراً لجميل سعيهم ، وحميد مقامهم . كما نجد في العصور المتأخرة مؤرخاً مترجماً كابن تغرى بردى المصرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ . يشير في مقدمة كتابه الضخم في التراجم المسمى « المنهل الصافي » إلى أنه ألف كتابه هذا « غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب به من الأصدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير ولا سلطان » . فهو استجابة ذاتية داخلية من الرجل ليكمل به كتاب « الوافي بالوفيات » لمؤلفه الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . ونرى بعد ذلك في القرن الحادى عشر الهجرى مؤرخاً مترجماً كابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ يذكر في مقدمة كتابه المشهور في التراجم « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » أنه جمعه لنفسه تذكرة لمن تذكر ، وعبرة لمن تأمل وتبصر . وكذلك فعل ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ حين جعل كتابه « وفيات الأعيان » تذكرة لنفسه ..

وقد أراد ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أن يؤكد لنا في مقدمة معجمه النفيس في تراجم العلماء والأدباء والنحاة والشعراء أنه جمع هذا الكتاب « لفرط الشغف والغرام ، والوجد بما حوى وهيام ، لا لسلطان أجتديده ، ولا لصدور أرتجيه » . فكأنه هنا يعرض من طرف خفى بأبي بكر الزبيدى الذى صرح بإفادته من كتابه ونقل فوائده إلى معجمه . .

ولعل ياقوت الحموى كان يرد ردا غير مباشر على الذين عابوا كتابة تراجم للشعراء والأدباء والنحاة واللغويين بدلا من الترجمة للمفسرين والحديثين ، ذلك حين ذكر في مقدمة معجمه « أنه أخبار قوم عنهم أخذ علم القرآن الحميد ، والحديث المفيد ، وبصناعتهم تنال الإمارة ، وببصاعتهم يستقيم أمر السلطان

والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » وقد أخذ يدلل على أهمية التراجم للنحاة واللغويين لما في علم اللغة والنحو من معرفة القرآن الكريم والحديث الشريف على وجهيهما « فإن العلم إنما هو باللسان ، فإذا كان اللسان معوجاً فمى يستقيم ما هو به ؟ » وقد فطن المؤرخ المترجم ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ إلى ضرورة الاختلاف في الترجمة لطبقات الرجال لا فرق بين فقيهه ومحدث وعالم وأديب فقال : « رأيت المحدثين تختلف مقاصدهم فمنهم من يقتصر على ذكر الابتداء ، ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والخلفاء ، وأهل الأثر يؤثرون ذكر العلماء ، والزهاد يحبون أحاديث الصالحاء ، وأرباب الأدب يميلون إلى أهل العربية والشعراء. ومعلوم أن الكل مطلوب ، والمخدوف من ذلك مرغوب ».

التراجم الذاتية

الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه ، فيسجل حوادثه وأخباره ، ويسرد أعماله وآثاره ، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته ، وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالباً ، وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها . ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقاً على حياته ، لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض ، ولكنها مجال تحقيق وثبت ، وبهذا يصح في المترجم الذاتي مضرب المثل : قطعت جهيزة قول كل خطيب .

وما أصدق الدكتور جونسون - الأديب الإنجليزي المشهور - حين يقول :
إن حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عنه . ولكن هل يستطيع إنسان أن يكتب عن نفسه ما لا يود أن يراه الناس منه ويعرفوه عنه ؟ وهل يستطيع إنسان أن يبدي نفسه للناس على سجيته وفي مبادئه من غير أن يحاول ترميم العيوب التي لا يجب أن يطلع غيره عليها ؟

وهل تستطيع الترجمة الذاتية مثلاً أن تسعفنا بما نود استحضاره من ذكريات الطفولة والمراهقة ؟ وإذا كان النسيان غير المقصود يفوت علينا - حين نترجم حياة أنفسنا - ذكريات ماض بعيد ، فإن هناك نسياناً مقصوداً متعمداً حين يمنعنا الحجل والاستحياء من ذكر صغائر في حياتنا قد لا تشرف الصفحة التي نريدها ناصعة البياض

ولكن هناك من أصحاب التراجم الذاتية الغربيين من لم يتورعوا أن يذكروا نقطاً ضعفهم ما دام الضعف البشري مفروضاً في الإنسان غير القادر على التمام .

ولعل العرب كانوا أحرص الناس على حيواتهم الخاصة حين رغبوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم ، ولعل أصحاب الخطر والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة قد عدلوا عن الترجمة لأنفسهم ما دام غيرهم من الكتاب والمؤرخين قد تولى ذلك عنهم . ولعل من مخلق العربي سمات نفسيته أن لا يتحدث عن نفسه بقوله أنا : أو عن عمله بقوله : عملت .

وعجيب جدا أن يجوز للشاعر في معرض الفخر أن يقول : أنا ، أو نحن ، ولا يجوز للكاتب أن يجلس ليقص علينا طرفاً من حياته وسيرته .

وعجيب جدا أن يفن المسلمون في كتابة التاريخ والسير ، فلم يدعوا لونا من ألوان التاريخ والتراجم إلا عاجلوه على كثرة ، ولكنهم لم يفكروا في المذكرات واليوميات الشخصية إلا على حال من الندرة ، ولم يفكروا في التراجم الذاتية إلا على حال من القلة القليلة التي لا تتكافأ مع هذا الفيض الزاخر من التراجم والسير . أما المذكرات واليوميات فأطرف ما عندنا منها مذكرات الأمير العربي أسامة ابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ التي أودعها كتابه «الاعتبار» فهي تصور لنا سيرته وأعماله وفروسيته ، كما تصور لنا طائفة من صور المجتمع الإسلامي في عصر الأيوبيين .

وأما التراجم الذاتية فن أقدم من نعرف ممن عاجلوها الشاعر عمارة اليمنى الذى كان موالياً للفاطميين في أخريات دولتهم في القرن السادس الهجرى ، فقد تحدث عن نفسه في كتابه «النكت العصرية» .

على أن «سيرة المؤيد داعى الدعاة» بقلمه هي أسبق عهداً مما ترجم به الشاعر عمارة اليمنى لنفسه ، وترجع إلى منتصف القرن الخامس ، وتصور لنا حياة داعية من دعاة الفاطميين وأنصار المذهب الإسماعيلى . وقد ظلت هذه السيرة الذاتية مغفلة الإشارة إليها في كتب التراجم والتاريخ ، ولعل لقيام المذهب الإسماعيلى نفسه على التقية والستر أثراً في اختفاء هذه الترجمة الحافلة بكثير من الفوائد

التاريخية ، إلى أن أتيح لها أن تظهر من عهد غير بعيد .
 على أن ابن سينا الفيلسوف المتوفى سنة ٤٢٨ هـ قد ترجم لنفسه ترجمة اعتمده عليها
 تلميذه الجوزجاني حين ترجم له . ومن ترجم لنفسه من رجال الأمة العربية الإسلامية
 العماد الأصهباني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ في تصديره لكتابه «البرق الشامي» ، والسيوطي
 المؤرخ المتوفى سنة ٩١١ هـ في كتابه «حسن المحاضرة» ، والسخاوي المؤرخ
 المتوفى سنة ٩٠٢ هـ في كتابه «الضموء اللامع في أعيان القرن التاسع» ولسان الدين
 ابن الخطيب مؤرخ الأندلس المتوفى سنة ٧٧٦ هـ في كتابه «الإحاطة في تاريخ
 غرناطة» ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ في كتابه «التعريف» الذي ذكر
 فيه رحلاته شرقاً وغرباً ومراسلاته وقصائده وما عاناه في أسفاره . والمقرئ المؤرخ
 الأندلسي المتوفى سنة ١٠٤١ هـ في الجزء الأول من كتابه «نفتح الطيب من غصن
 الأندلس الرطيب» حيث وصف رحلته من الأندلس إلى المشرق .

ويسوقنا ذكر رحلتي ابن خلدون والمقرئ إلى ذكر جماعة من الرحالين
 العرب ، لم يترجموا لأنفسهم تراجم ذاتية مستقلة ، ولكنهم ذكروا في خلال
 أسفارهم وتجوالم وما لاقوه في خلالها من الأحداث ما يصح أن ينهض بجزء كبير
 من الترجمة لحيواتهم ، كما فعل ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ وابن بطوطة المتوفى
 سنة ٧٧٩ هـ في رحلتيهما .

ولقد مضت القرون متعاقبة بعد ذلك وليس في الأدب العربي ترجمة ذاتية فيما
 نعلم ، حتى جاء القرن العشرون من تاريخ المسيح ، فرأينا المرحوم الأستاذ محمد
 كرد علي يترجم لنفسه ترجمة في بضع عشرة صفحة في آخر كتابه «خطط الشام»
 المطبوع في دمشق سنة ١٩٢٧ م ، وقد كان الرجل فيها صريحاً كعادته ، وكما
 سمعناه في مصر مرات حين كانت كلمة الحق منه تغضب سامعيه . وقد تحدث
 عن مزاجه العصبي الدموي ، وعن تألمه للظلم ، وكراهته للفوضى ، وانقباض نفسه
 من غشيان المجالس الغاصة ، بل تحدث عن فقر والده ويتممه حين اضطرتته

ضرورات الحياة أن يشتغل في صناعة الخياطة أول أمره .

ولعل الأجزاء الأربعة الضخام من « المذكرات » التي طبعها سنة ١٩٤٨ م تعد أطول وأطرف ما وعاه الأدب العربي من مذكرات في القديم والحديث . ولقد جمعت من الآراء ما أثار سنخظ نفر من رجال العروبة ، إلا أن فيها من صدق الرجل وجرأته وحسن نيته وعلو أساوبه وحسن بيانه ما لا يجوز لمؤرخ الأدب الحديث إغفاله .

ولن نختم هذا الباب من الكتاب دون الإشارة إلى كتابين معاصرين في التراجم الذاتية : أولهما « الأيام » لطفه حسين ، وثانيهما « حياتي » لأحمد أمين . وفي الأول من جمال التصوير وحلاوة التعبير ورشاقة الحكاية مثل ما في الثاني من الصدق والصراحة والبساطة ...

افصل الثاني

السير - السيرة النبوية - السيرة الشعرية

السير:

ما الفرق بين الترجمة والسيرة؟ ليس في الفروق اللغوية ما يمين الفرق بينهما على وجه التحديد. إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا. فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة.

وأول ما استعملت لفظة السيرة في سيرة الرسول التي سنتناولها عما قليل، وسمى المؤلفون فيها بأحجاب السير، إلا أن ذلك لم يمنع مؤلفاً في أواخر القرن الثالث الهجرى هو أحمد بن يوسف بن الداية - الكاتب المصرى - أن يؤلف كتاباً في «سيرة أحمد بن طولون». ولعل هذه هي أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة «السيرة» من سيرة النبي إلى سيرة غيره من الرجال. وفي أوائل القرن الرابع الهجرى، وبعد كتاب ابن الداية بزمن وجيز، ظهر كاتب مؤرخ اسمه عبد الله البلوى فلم تعجبه «سيرة ابن طولون» كما ألفها سلفه أحمد بن يوسف الذى «كان يمر في شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها، وأنه كان يخلط أخباره... وما هكذا أرخ الناس الأخبار، ولا عليه نظم العلماء الآثار...» فكتب «سيرة ابن طولون» على المذهب الذى رآه صالحاً لسير الرجال. وله طريقة في تحليل الحوادث وتعليلها والتعليق عليها وإبداء شعوره الخاص نحوها، إلا أنه

كان يروى الأخبار بطريق الإسناد على نحو ما كان يفعل أصحاب الحديث وكتاب الطبقات في القرنين الثاني والثالث .

وفي القرن الخامس الهجري شهدت الفتوحات الإسلامية غازياً في سبيل الله من طراز طال عهد المسلمين به منذ أيام الفاتحين الأولين . ذلك الفاتح هو السلطان محمود الغزنوي الذي نشر راية الإسلام في الهند وما جاورها ، وقد ألفت الأقدار لكاتب منشيء راسخ القلم والمكانة في البيان العربي - هو أبو النصر العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ أن يتصل بالأمراء الغزنويين ، وأن يشهد عن كتب جلائل الأعمال والفتوح التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، فألف كتاباً أسماه « اليميني » نسبة إلى يمين الدولة - وهو لقب السلطان محمود - وبسط فيه ترجمة حياته وترجمة أبيه السلطان سبكتكين ، وأودع فيه من المعارف التاريخية ما لا غنى عنه لمؤرخ يهتم بذلك العصر ، وكتبه مسجوعاً على نحو ما فعل الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » .

وقد لقيت هذه السيرة للسلطان الغزنوي من القبول في البلاد الإسلامية ما جعل الأدباء يتسابقون إلى شرحها ، كما صنع الشيخ أحمد المنيني الدمشقي المتوفى سنة ١١٧٢ هـ في كتابه المسمى « الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي » وليس هذا هو الشرح الوحيد لهذه السيرة ، فقد شرحها جماعة منهم الكرماني ، والخورزمي ، وابن محفوظ ، وحيد الدين .

أما القرن السادس الهجري فقد حظي بطائفة من السير كتبها المؤرخ المترجم ابن الجوزي لجماعة من عظماء الأمة الإسلامية ، فقد كتب سيرة للخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أفاض فيها ، وذكر كثيراً من أخباره وفضائله وأوليائه وإدارته المملوكة الإسلامية وتدوينه الدواوين ، وجرى في الأخبار على طريقة الإسناد . ولا تقل سيرته للخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز عن سيرته للخليفة الثاني . وقد قابل ابن الجوزي هاتين السيرتين لعلمين من أعلام الخلفاء المسلمين بسيرته

لإمام من أئمة المسلمين المجمع على فضلهم ومناقبهم وتفقههم في الدين ، هو الإمام أحمد بن حنبل . فقد أرخ أعماله ومحنته في فئنة القول بخلق القرآن ، وفقهه وأصحابه ومريديه . وجرى في ذلك على طريقة الإسناد أيضاً كما صنع في سيرته للعمرين . أما السيرة التي كتبها الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ للإمام الشافعي ومناقبه فلعلها مقابل ما صنعه ابن الجوزي مع الإمام ابن حنبل . وهي سير تدل في مجموعها على روح ذلك القرن واتجاه مؤرخيه نحو التماس المثل الرفيعة في سياسة الحكم ، وفي فقه الدين ، عند عظماء الراحلين من المسلمين .

ولقد اختلفت في القرن السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأموات السالفين وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السلطان ومؤسسي الدولات ، كما ظهرت بجانبها سير العلماء المعاصرين . فزرى ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ يكتب سيرة لصالح الدين الأيوبي عنوانها « النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية » ، وزرى محمد بن أحمد النسوي المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٩ هـ يكتب « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » من ملوك الدولة الخوارزمية ، وزرى ابن عرب شاه المتوفى سنة ٨٤٥ هـ يكتب « عجائب المقدور في أخبار تيمور » ، وهو سيرة لتيمورلنك ملك التتار ، مسجوع العبارة ككتاب « اليميني » الذي سبقت الإشارة إليه . وزرى ابن الشهيد الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ يكتب « الدر الثمين في سيرة نور الدين » ، وزرى القاضي الأديب محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ يكتب سيرة السلطان خليل بن قلاوون في كتابه « الألفاظ الخفية » من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية « وزرى غير هؤلاء عشرات من السير أغلبها للملوك والسلاطين كما سلف القول ، وقليل منها في سير العلماء والصوفية مثل كتابي ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ في سيرة السيد البلوي والسيد عبد القادر الجيلاني ، وكتاب السخاوي المؤرخ المتوفى سنة ٩٠٢ هـ في ترجمة شيوخه وأستاذه ابن حجر ، وكتابي السيوطي في مناقب الإمام مالك والإمام أبي حنيفة .

ولسنا هنا الآن بسبيل حصر هذه الكثرة الكاثرة من كتب السير ، ولكنها في مجموعها لا تخرج عن النهج القديم المطروق من ذكر الأخبار والمناقب مصحوبة بأسنادها ، حتى لثشبهه الكتب المؤلفة في سيرة واحدة ، لأنها تأخذ جميعاً من معين واحد ومن رواة بعينهم تتفق ألفاظهم وتنقل كما هي ، إلا ما يحدث من تزييد بعض الروايات أو تنقصها على هوى الناقلين .

السيرة النبوية

كانت سيرة النبي عليه السلام - أول ما دونت - باباً من أبواب الحديث النبوي الذي جمعه رجال الحديث ورتبوه على أبواب مستقلة ، فكنت تجد في الصحاح من حديث رسول الله كتاباً في « الجهاد والسير » أو كتاباً في « المغازي » بجانب كتب الفقه الأخرى وأبوابه .

ولقد ظهر بجانب رجال الحديث مؤرخون للسيرة النبوية نصبوا عزائمهم على جمع أخبارها ورواية أحداثها . وهؤلاء المؤرخون كانوا بالطبع من رجال الحديث ورواته ، إلا أن اهتمامهم بأمر السيرة النبوية جعل لهم نوعاً من التفرد في هذا الميدان .

ولم تستأثر بلدة إسلامية واحدة بإخراج مؤرخين لسيرة الرسول ، فقد اشترك في ذلك العمل طائفة من المدن الإسلامية الكبرى في أخريات القرن الأول الهجري والقرن الثاني . فبرى من مؤرخي السيرة في المدينة أبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥ هـ وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢ هـ ، وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ هـ ، وعبد الله بن حزم المتوفى سنة ١٣٥ هـ ، وعاصم بن قتيادة المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ، ومحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٢ هـ ، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ونرى من مؤرخي السيرة المكيين ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ ، كما نرى من البصريين معمر بن راشد ، ومحمد بن سعد صاحب

الطبقات ، وابن هشام صاحب كتاب « السيرة النبوية » المتوفى سنة ٢١٨ هـ .
ومن الكوفيين زياداً البكائى المتوفى سنة ١٨٣ هـ . كما نرى اليمن ممثلة فى كتابة
السيرة النبوية وجمعها على يد وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ . وقد انتهت إلينا
سيرة الرسول فى كتاب عبد الملك بن هشام الذى انتهت إليه السيرة التى كتبها ابن
إسحاق ، والتى لا يعرف الآن شىء عنها أكثر من أنها نهاية ما وقف عليه ابن
هشام تلميذ ابن إسحاق من سيرة الرسول . وهى وإن كانت تعرف بسيرة ابن هشام
إلا أن فضيل راويها محمد بن إسحاق لا ينكر ، فلولا روايته ومشيعته لابن هشام
ما انتهت إلينا السيرة النبوية بهذا الشكل الذى يعد أقدم مصدر معتمد عليه فى
تاريخ حياة الرسول .

ونلاحظ فى كتاب السيرة النبوية ومؤرخيها الأولين أن أغلبهم كان من أهل
مدينة الرسول ، وقد أتاح لهم قربهم من عاصمة الإسلام — بعد مكة — أن يرووا
الأحداث كما سمعوها من أقرب الناس إليها ، وأن تنقل عنهم هذه الأخبار — على
طريق الإسناد كما فى رواية الحديث — فى الأمصار .

وقد اضطر بعض مؤرخى السيرة أن يسقطوا الأسانيد مراعاة للاختصار من
ناحية ، ووصلا لسلسلة الحوادث من ناحية أخرى كما فعل ابن إسحاق والواقدى ،
ولكنهم تعرضوا لنقد الناقدين من رجال الحديث وتجريحهم ، ولم يسلم ابن إسحاق
من هذه الحملات العنيفة ، وإن كان دافع عنه بعض المؤرخين وردوا على
الطعون الموجهة إليه ، كما نرى فى كتاب « عيون الأثر » لابن سيد الناس اليعمرى
وهو من مؤرخى الأندلس ومؤلفى السيرة فى القرن الثامن الهجرى .

والحق أن ابن إسحاق كان — على سعة علمه واتساع روايته — لا يتقيد
بالقيود التى وضعها رجال الحديث ، ومن هنا وجدوا سبيلا فى الطعن عليه ، وقد
كان يجمع بعض أخباره من الكتب المدونة فى ذلك العهد البعيد مع أن رجال
الحديث يشترطون السماع . إلا أنه كان صادقاً غير مطعون عليه فى هذه الناحية

وكان حرصه على كثرة الجمع قد شغله عن تنخل ما يجمعه وتحقيقه ، وخاصة فيما لا يحسنه من أبواب العلم والأدب — كالشعر مثلاً — فقد كان يقبل كل شعر يقال متصلاً بحوادث السيرة النبوية ولو كان موضوعاً . ويقول عنه ابن النديم صاحب كتاب « الفهرست » : « إنه كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » .

والحق أن تلميذه ومدون سيرته : ابن هشام ، كان أكثر منه بصراً وحذراً . فإنه كان أميناً في الرواية عن أستاذه ، إلا أنه يعلق على الأشعار المروية قائلاً : « هنا ما صح لى من هذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » أو يعلق على أبيات لأبي قيس بن الأسلت الأنصارى بأنها « تروى أيضاً لأمية ابن أبي الصلت » .

ولم يكتف ابن هشام مؤرخ السيرة النبوية بهذه النظرة الناقدة إلى الشعر المروى فيها مما فات أستاذه ابن إسحاق أن يحققه ، بل كثيراً ما نراه يقف — بعد رواية أستاذه — فيصحح لفظاً وقع في عبارة ابن إسحاق ، أو يشرح كلمة غامضة أو يذكر رواية أخرى مخالفة للأصل ، أو يذكر شاهداً على استعمال لغوى . بل أباح لنفسه أن يسقط من أصل السيرة ما لا يراه مناسباً في مثل هذا الكتاب الجليل ، فيقول مثلاً : « تركنا هنا كلاماً لأنه أفحش فيه » .

وتظهر عدالة المؤرخ واستواء الميزان عند ابن هشام في موقفه من الشعر الهجائي المقذع الذي يحذفه من أصل السيرة . فهو يحذف المفحش من هجاء شعراء المسلمين كما يحذف المفحش من هجاء شعراء المشركين على حد سواء ، لا يحابي ، ولا يتعصب ، ولا يميل . لأنه راض نفسه أن يقف موقف المؤرخ الناقد ، لا المؤرخ المتعصب المتحيز .

هذه هي « سيرة الرسول » كما دونها المؤرخ ابن هشام رواية عن شيخه ابن

إسحاق ، الذى انتهى إليه علم المغازى والسير فى منتصف القرن الثانى من الهجرة .
وقد أخذ مؤرخو المسلمين بعد ذلك وعلى تتابع العصور الإسلامية يكتبون
فى السيرة النبوية والشمالىة الحمديية ، ويجلون من نواحي الرسول ما يجد فيه
المسلمون الأسوة الحسنة والقلمة الطيبة ، ويفيضون فى التاريخ للسيرة وصاحبها من
نواح عدة ، فمنهم من يفيض الحديث فى غزواته ، ومنهم من يطيل القول فى
شمالته ، ومنهم من يتحدث عن أولاده وحفدته ، ومنهم من يتخذ من أمحلاقه
مثلا كاملا للإنسان الكامل ، ومنهم من يجعل من السيرة النبوية محورا تدور
حوله أحداث التاريخ الإسلامى وأعمال رجاله وصانعيه الأولين .

على أن من المؤرخين من أفرد سيرة الرسول بكتاب خاص قائم بذاته، كما
صنع القاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى كتابه « الشفا فى تعريف حقوق
المصطفى » ، وكما صنع ابن سيد الناس اليعمرى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ فى كتابه
« عيون الأثر فى فنون المغازى والشمالىة والسير » ، وكما صنع المؤرخ مغلطاي
المتوفى سنة ٧٦٢ هـ فى كتابه « الزهر الباسم ، فى سيرة أبى القاسم » ، وكما صنع
شهاب الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ فى كتابه « المواهب اللدنية ، فى المنح
الحمديية » ، وكما صنع نور الدين الحلبي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ فى كتابه « إنسان
العيون ، فى سيرة الأمين المأمون » وهو المعروف بالسيرة الحلبيية ، فرقا لها من سيرة
ابن هشام ، وكما صنع المرحوم الشيخ محمد الخضرى من أهل زماننا هذا فى
كتابته « نور اليقين ، فى سيرة سيد المرسلين » (١) .

ومن المؤرخين من جعل سيرة الرسول قسما من كتابته فى التاريخ العام كما فعل

(١) من الإنصاف هنا أن نشير إلى كتابين حديثين فى ترجمة الرسول وحياته سلكا طريق
البحث والتحقيق ومعارضة الروايات ، ولتعمق فى دراسة الأحداث والمغازى ، وهما « حياة محمد »
للدكتور محمد حسين هيكل ، « محمد » للمرحوم الأستاذ محمد رضا . وهناك « على هامش السيرة »
للدكتور طه حسين ، وهو إحياء للسيرة النبوية على طريقة أدبية حية نابضة ، تصور الأحداث والرجال
فى حركة ، مع رشاقة فى التصوير والتعبير .

الطبرى المؤرخ المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فى كتابه «الكامل» ، والذهبي المؤرخ الحافظ الناقد المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فى كتابه الواسع «تاريخ الإسلام» ، وابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فى كتابه الضخم «البداية والنهاية» ، والديار بكرى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ فى كتابه «الحميس» ، فى أحوال أنفس نفيس . فهؤلاء - وغيرهم ممن لسنا بسبيل حصرهم - قد ترجحوا للرسول عليه السلام وأرخوا للسيرة النبوية بما يكون كتاباً قائمة بذاتها فى السيرة . فابن كثير - مثلاً - يخصص أكثر من جزئين من كتابه الضخم فى سيرة الرسول . وابن الأثير يخصص أكثر من جزء كبير من كتابه لسيرة الرسول .

وكثيراً ما تتشابه أخبار السيرة النبوية فى هذه الكتب وتكاد تتفق ألفاظها ورواياتها لأنها تتمتع جميعاً من معين واحد . وإذا كانت «سيرة ابن هشام» هى الأصل فإن ذلك لم يمنع أن يلجأ المؤرخون للسيرة إلى مصادر أخرى غير سيرة ابن هشام . وكثيراً ما نرى فى الطبرى أخباراً برواية ابن إسحاق مؤرخ السيرة ، وإن كانت هذه الأخبار لم ترد فى «سيرة ابن هشام» ، لأن هذه قد اختصرت كثيراً من روايات ابن إسحاق وهذبها كما سلف القول .

وقد ظفرت السيرة النبوية بطائفة من التلخيصات والتذييلات والشروح سنتحدث عنها فى موضع خاص بذلك من هذا الكتاب ، غير أن ذلك لن يعجلنا هنا عن الإشارة إلى ما صنعه أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ فى كتابه «الروض الأنف» فى تفسير سيرة ابن هشام ، حتى ليعد هذا الكتاب شرحاً وافياً ، وإكمالاً لما يذكره ابن هشام فى سيرته التى تعد أقدم أثر فى تاريخ الرسول الكريم .

السيرة الشعرية

لعل الشعر أراد أن يثبت أنه قادر على أن يلج الميادين التي كانت للنثر ، أو لعل الشعراء — أو ناظمي الشعر من المؤرخين — أرادوا للشعر أن يكون سبيلاً متأنقاً لكتابة التاريخ ، فلجأوا إلى تدوين بعض السير عن طريق الكلام المنظوم الذي يقيد الوزن والقافية معاً كما في القصائد التاريخية ، أو يقيد الوزن فقط مع تنوع القافية ، كما في الأراجيز التاريخية .

ولقد عرفنا بعض كتاب التراجم الذين تأنقوا في الكتابة بنثر مسجوع ، كما فعل أبو النصر العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ في كتابه « اليميني » في سيرة السلطان يمين الدولة محمود الغزنوي ، وكما فعل الثعالبي في « يتيمة الدهر » ، وكما فعل ابن خاقان في كتابه « قلائد العقيان » الذي ترجم فيه لطائفة من أعيان معاصريه في الأندلس . ولكن يظهر أن المؤرخين الشعراء لم يرضوا بالنثر وسيلة لغرضهم من الترجمة والسير ، فاستخدموا الشعر في ذلك الباب ، وهي حركة كانت استجابة لحركة الشعر التعليمي الذي بدأ يدخل كل ميدان من ميادين العلوم .

ولعل أقدم تاريخ منظوم هو ما صنعه عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ في قصيدته التاريخية في أشعار الخلفاء والملوك ، وفي أرجوزته في تاريخ الخليفة المعتضد العباسي التي صنعها بإشارة من المعتضد نفسه ، وقد أعجب بها الخليفة وحفظها إحدى جواريه ، فكانت تنشده إياها في أكثر أوقاته .

والحق أن المعتضد لم يطلب من الشاعر ابن المعتز أكثر من تأليف كتاب في سيرته وترجمة حياته ، فوجد الشاعر في الشعر ما يغنيه عن التأليف بالنثر ، وأنجز سيرة الخليفة المعتضد في أرجوزة طويلة ، ضمت تاريخ هذا الخليفة المصلح الحازم الذي غطى على نفوذ الأتراك في قصر الخلافة ، وكان له من الإصلاحات الكثيرة ما يذكرونها له التاريخ .

ولقد وجد الشاعر الرقيق مطاوعة عجيبة من الشعر في التعبير عن أغراضه ،
وفي الإلمام بنواحي صاحب السيرة في شعر رقيق لطيف ، كقوله في وصف
قصر الرباب الذي بناه المعتضد سنة ٢٨٧ هـ :

فمن رأى مثل « الرباب » قصرا	كم حكمة فيه تحال سخرا
والنهر والبستان والبحيرة	قد جمع الماء إليها طيره
وللبزاة معها وقائع	فغائصٌ في جوفها وواقعٌ
وبعضها يذبح في الأكف	مأسورةٌ قد رُميت بجثف
وما رأى الراعون مثل الشجرة	ذات غصون مورقات مشره

وكقوله في قضاء المعتضد على اللصوصية التي كانت منتشرة في الموصل
في ذلك العهد :

سار إلى الموصل ينوى أمرا	فألاً البر معاً والبحرا
وكبس اللصوص والأفرادا	وأمن البلادَ والعبادا
وجزعت من خوفه الفراعنة (١)	وأصبحت سفن التجار آمنة
وكان في دجلة ألفُ ماخر	لم يعنها إلا جناح طائر
يجبون كل مقبل ومدبر	مجاهرين بالفعال المنكر
كم تاجر راوغهم بزورقه	فأغمدوا سيوفهم في مفرقه
وفرت الأعراب في البلاد	وأهاكوا إهلاك قوم عاد
فأودعوا السجن مكتفينا	مغلغلين ومصفيدينا

فهذه الصورة الشعرية للصوص وأعمالهم وكبس رجال الخليفة لهم قد أحسن
الشعر عنها التعبير بما لا يقل أداءً وضبطاً للمعنى عن النثر .

(١) يدل هذا الاستعمال في التجبر والجبروت على قدم دلالة لفظ « فرعون » على المستبد المتجبر

وأخذت بعد ابن المعتز تتوالى السير الشعرية سواء أكانت ترجمة للرسول عليه السلام أم ترجمة للملوك والحكام وأعيان الرجال .

أما السيرة الشعرية للرسول فقد تصدى للقيام بها جماعة من المؤرخين الشعراء ، كما فعل شمس الدين الباعوني المتوفى سنة ٨٧١ هـ في كتابه المسمى « منحة اللبيب » ، في سيرة الحبيب » ، وكما فعل زين الدين بن الشحنة المؤرخ المتوفى سنة ٨١٥ هـ في أرجوزته في سيرة الرسول ، وتبلغ عدة أبياتها تسعة وتسعين بيتاً ، وكما فعل ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ في كتابه « بشرى اللبيب ، في ذكرى الحبيب » ، وإن كانت في الحق أقرب إلى شعر المديح منها إلى شعر السير .

أما السير الشعرية لغير النبي عليه السلام فقد كتب فيها جماعة من مؤرخي العصر المملوكي ، وأشهرهم الأديب الكاتب المؤرخ محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ في كتابه « سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس » ؛ وبهاء الدين الباعوني المتوفى سنة ٩١٠ هـ في كتابه « القول للسيد الأظرف » ، في سيرة السعيد الملك الأشرف » وهي أرجوزة تقع في أكثر من خمسمائة بيت ، وتشتمل على سيرة السلطان برسباي إلى قايتباي ؛ وبلدر الدين العيني المؤرخ وصاحب كتاب « عقد الجمان » المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، وقد نظم سيرة الملك المؤيد السلطان المملوكي في كتاب يعرف « بالجوهر » ، ويظهر أنه لم يقتنع بهذه السيرة الشعرية ، فألف كتاباً آخر منشوراً في سيرة ذلك السلطان أسماه « السيف المهند » ، في سيرة المؤيد

وإذا كنا نعجب من طريقة بعض الكتاب المتصنعين في عصور متأخرة من حل الأبيات الشعرية وتحويلها إلى منشور ، فماذا يبلغ بنا العجب إذا عرفنا أن سيرة المؤرخ ابن عبد الظاهر — التي سبقت الإشارة إليها والتي نظمها مؤلفها بالشعر — قد أحلها إلى لغة نثرية شافع العسقلاني المتوفى سنة ٧٣٠ هـ في كتاب أسماه : « المناقب السرية ، المنتزعة من السيرة الظاهرية » .

والحق أن هذه السير لم تكن في مجموعها غير نوع من التقرب ، والزلفى ،
 والمدائح للمؤرخة سيرتهم ، ولم يكن فيها من مناهج الترجمة وكتابة السير ما يضيف
 إلى العلم أو التاريخ حقيقة جديدة ، أو يجلو لبساً ، أو يحقق مسألة . غير أن
 الطرق اختلفت بهم فيمن يتقربون إليه ويلتمسون الزلفى عنده ، أو الشفاعة لديه .
 فأصحاب سيرة الرسول الشعرية يكتبونها على طريق التقرب إلى رسول الله ، والتمن
 بسيرته ، والاصطناع لديه ؛ وأصحاب سير الملوك والحكام يبتغون بها الجاه ،
 ويلتمسون بها الزلفى ، ويتوقعون منها عراض الدنيا . ولكل وجهة هو موليا . . .

الفصل الثالث

أنواع كتب التراجم

التراجم العامة الجامعة - التراجم حسب العصور - التراجم لسنة لسنة -
التراجم في كتب التاريخ العام - كتب الطبقات - « طبقات الصحابة ،
والفقهاء والقراء ، والحفاظ ، والمحدثين ، والنحاة ، والشعراء ، والصوفية ،
والقضاة ، والأطباء ، والفلاسفة » - تواريخ البالدان وتراجم رجالها .

التراجم العامة الجامعة

نقصد بالتراجم العامة تلك الكتب التي تجمع طائفة من التراجم لطائفة من
الرجال يختلفون صناعة وطبقة وعصراً ومكاناً ، ولكنهم يتحدون في صفة واحدة
تجمعهم وهي صفة الجدارة والاستحقاق بأن يترجم لهم . وتلدون سيرهم . وفي هذا
النوع من كتب التراجم يجتمع الفقيه والمحدث والشاعر والأديب والحكيم والقاضي
وغيرهم بين دفتي كتاب واحد على الرغم من الفروق الكثيرة بين مهتهم ورسالتهم
في الحياة . كما يجتمع رجل من رجال القرن الأول بجانب رجل من رجال القرن
الثاني أو الخامس أو ما بعدهما . كما يجتمع المكي والمدني والشامي والعراقي والمصري
والخراساني والأندلسي ، بغض النظر عن اختلاف أوطانهم .

ويعد هذا النوع من كتب التراجم معجماً للرجال البارزين في كل علم وفن
في مجموعة من العصور ، يرتبون بحسب سني وفياتهم ، أو بحسب أسمائهم كما
سنوضحه في موضع آخر .

وفي الأدب العربي طائفة من هذا النوع من كتب التراجم لا مندوحة من الإشارة إلى ثلاثة منها تعد من أمهات الكتب في هذا الموضوع .

وأول هذه الكتب كتاب « نزهة الألباء ، في طبقات الأدباء » لكمال الدين الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ . وأغلب الظن أنه أول كتاب في التراجم العامة بعد أن كانت كتب التراجم تكتب في نوع خاص من الرجال ، فللمحدثين طبقاتهم ، وللشعراء طبقاتهم ، وللمنحاة واللغويين طبقاتهم ، وللقضاة طبقاتهم كما سيبيجي .

وعلى الرغم من صغر حجم كتاب « نزهة الألباء » ووجازة الترجمة للأعلام المترجم لهم فإنه جليل النفع ، لأنه جمع فيه كثيراً من تراجم المتقدمين والمتأخرين إلى عصره ، وقد رتب فيه التراجم حسب سني الوفاة لا حسب ترتيب الأعلام وفق حروف الهجاء . وقد غلبت نزعة الأنباري في اللغة والنحو والأدب فظهر ذلك في إكثاره من تراجم اللغويين والمنحاة والأدباء ، وقل أن تجد فيه ترجمة لغير هؤلاء إلا إذا كان لهم هنالك مائة إلى اللغة والأدب .

أما ثاني الكتب في التراجم العامة فهو كتاب « معجم الأدباء » أو « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » الذي ألفه ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . وقد توسع الرجل في طبقات المترجم لهم وفي القدر الذي ترجم به لكل منهم فجمع فيه ما وقع له من أخبار المنحويين ، واللغويين ، والنسابين ، والقراء ، والإخباريين والمؤرخين ، والوراقين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً ، أو جمع فيه تأليفاً .

ومن هذا يتضح أنه لم يترك مشغلاً بالعلم والأدب والكتابة والوراقة والخط إلا ترجم له ، ونظمه في سلك معجمه الضخم . ولعل اهتمامه بتراجم الوراقين يرجع إلى حنينه لتقديم حرفته ، فقد كان الرجل في أول أمره يشتغل بنسخ الكتب بالأجر

وجعل بيع الكتب تجارته ، وحصلت له من ذلك فوائد كثيرة ظهرت في كتابيه العظيمين : « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » الذي نتحدث الآن عنه . وكان في نية ياقوت أن يأخذ نفسه بالمنهج الذي رسمه في مقدمته ، وهو الإيجاز في التراجم ، ولكنه لم يجد بدءاً من الإفاضة والتطويل في بعض الأعلام إلى حد يجعل من تراجمهم كتباً مستقلة بذاتها ، كما في ترجمته لإبراهيم بن العباس الصولي في أكثر من سبعين صفحة ، وترجمته لابن هلال الصابي في قرابة ذلك القدر ، وترجمته لأبي العلاء المعري في أكثر من مائة وعشر صفحات ، وترجمته لأمامة ابن منقذ في قرابة ستين صفحة .

ومن ناحية أخرى نراه يوجز في بعض التراجم إيجازاً لا يكاد يشفي غلة ، ولا يسد حاجة ، ولا يجيب مسألة . كترجمته للإخلاق الأديب في أربعة أسطر ، وترجمته لابن رضوان النحوي في سطر واحد وأقل من نصف السطر !

ولقد حمل هذا الاختلال في الميزان بعض الأدباء على أن يستظهروا من ذلك أن هذه التراجم الوجيزة ليست من صلب الكتاب ولكنها مدسوسة عاميه ، لأن مخطوطات معجم الأدباء لم تصل إلينا كاملة . وقد نادى بهذا الرأي (١) الأستاذ محمد كرد علي ، ولكن قد يقال في الرد عليه أن هذا الإيجاز المخل لم يكن في الأجزاء الأخيرة من الكتاب كما قال الأستاذ ، ولكنه يبدو في الفصول الأولى من الكتاب ، وهي الفصول التي لا يتطرق الشك في أن الاقتضاب الخزي قد أدركها . كما قد يقال أيضاً أن ياقوتاً كتب كتابه الضخم على فترات متباعدة ، وفي سنوات كثيرة فأنساه بعد الفترات وطول الزمن ما قد ألزم به نفسه في مقدمة معجمه .

وكانت في ياقوت طبيعة المؤرخ المحقق حين يترجم للرجال ، فهو يتثبت ، ويعارض رواية برواية ويرجح بين الاثنتين ، ويسأل المترجم لهم عن تواريخ

(١) كنوز الأجداد : محمد كرد علي ص ٣٢٤ .

ميلادهم ، ويستخبر غيرهم عن تواريخ وفياتهم ، كما فعل في ترجمته لأحمد الفرغانى حين يقول : (وكانت وفاته - كما أخبرنى المصريون بها - فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، عند كوفى بها) . وسنعرض لشيء من ذلك عند الحديث عن تحقيق الوفيات والمواليد .

وكان ياقوت فى منهجه فى التراجم لمعاصريه - ولن سبقوه أيضاً - مثال المؤرخ العفيف الذى يمر مر الكرام على ضعف الناس ومبازلهم وخواص شئونهم كما يوصى « تروبولد » . وما عرف عنه أنه وقع على عيب لرجل أو حاول إظهاره ، فإذا ما اضطر إلى ذلك ذكره بصيغة البناء للمجهول ، كما صنع فى ترجمته لمعاصره الشاعر ابن عنين ، فقد قال عنه : « ويقال إنه يخل بالصلاة ، ويصل ابنة العنقود ، ورماه أبو الفتح بن الحاجب بالزندقة ، والله أعلم بصحة ذلك » . كما كان مثال المقدر لمعاصريه الذاكر فضلهم فى إشادة بذكورهم ، وبعد عن تنقصهم . فيقول عن معاصره نجم الدين العقيلي إنه « أحد شعراء العصر المجيدين ، وأدبائه المبرزين » . ولا يذكر معاصراً إلا قرنه بوصفه أنه من أفاضل العصر ، أو أحد أفراد العصر الأعلام ، أو غير ذلك مما لا نجده مثلاً فيما وقع بين المؤرخين السيوطى والسخاوى من رجال القرن التاسع الهجرى .

ويمتاز ياقوت بأنه وضع فى مقدمة كتابه منهجاً لتراجم الرجال من حيث الترجمة لطبقات كثيرة ، ومن حيث العناية بمواليد الرجال ووفياتهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ومن حيث ترتيب الأعلام فى معجمه على طريقة حروف الهجاء مع التزام ذلك فى أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه . فآدم عنده مقدم على إبراهيم ، فإذا تساوى الاسمان الأولان رجع إلى أسماء الآباء فالترزم فيها ترتيب الحروف وهكذا ، ومن حيث الترجمة للرجال « على اختلاف البلدان ، وتفاوت الأزمان ، حسب ما اقتضاه الترتيب ، وحكم بوضعه التبويع » ، ومن حيث

حذفُ الأسماء التي كثيراً ما كانت تثقل كتب التاريخ والتراجم « إلا ما قل رجاله ، وقرب مناله » .

ولقد نجح ياقوت في التزام هذا المنهج إلا ما كان من إطالته في بعض التراجم وإيجازه الشديد في بعضها كما سبق القول .

أما الكتاب الثالث من كتب التراجم العامة فهو كتاب « وفيات الأعيان » الذي ألفه المؤرخ الشهير قاضي القضاة أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، ولقد كان معاصراً لياقوت أو على الأصح أدرك ثمانية عشر عاماً من حياته ، لأنه ولد سنة ٦٠٨ هـ ، وترجم حياته في كتابه وختم الترجمة الطويلة بقوله : « وكان الناس عقيب موته يثنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه ، ولم يقدر لي الاجتماع به » .

فالمؤرخان العظيمان لم يتلاقيا ، وإن كانا قد التقيا في فن واحد هو فن التراجم العامة الجامعة ، ولا يزال كتاباهما من المراجع الهامة الموثقة في تواريخ الرجال إلى القرن السابع الهجري . ولقد رسم ابن خلكان منهجه بإيجاز في مقدمة تاريخه الجليل فهو يرتب التراجم وفق أسماء المترجم لهم ، بدلا من ترتيبها حسب السنين كما هو الشأن في كتب التاريخ الإسلامي العام ، وقد اختار طريقة الترتيب الهجائي حتى يكون الكتاب أسهل تناولا ، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر في العصر ، وإلى إدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين ، فقد يقع شاعر بجانب مفسر ، أو نحوي بجوار طبيب ، ولكنه آثر ذلك لما فيه من المصلحة المقتضية .

وعلى الرغم مما لاحظته ابن خلكان من مراعاة التسهيل في ترتيب الأعلام تسهيلا للرجوع إليها ، فإنه قد استحدث صعوبة لو كان فطن إليها لكان قد عمل على تلافئها ما دام القصد هو سهولة التناول ، فإنه قد رتب الأعلام على حسب أسماء أصحابها لا على حسب ما اشتهروا به . فأبو تمام في حرف الحاء لأن

اسمه « حبيب » ، وأبو فراس الحمداني الشاعر في حرف الحاء لأن اسمه « الحارث » ، والسيرافي النحوي المشهور في حرف الحاء لأن اسمه « الحسن » ، وهكذا في أكثر الأعلام ، وهذا يقتضى من القارئ معرفة تامة بأسماء المترجم لهم ، لا بأسماء شهرتهم ، وإلا لقي عناء في التهدى إلى الأعلام .

ومن مناهج ابن خلكان في كتابه أنه لم يقصره على طائفة مخصوصة كالعلماء وحدهم ، أو النحاة وحدهم ، أو الوزراء وحدهم ، « بل كل من له شهرة بين الناس ، ويقع السؤال عنه ذكرته ، وأثبت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب » .

وقد اهتم ابن خلكان بوفيات المترجم لهم فأثبتها ، وذكر موالدهم إن قدر عليها وبالغ في ضبط الأعلام والأسماء فقيدها أو قيد منها ما لا يؤمن التصحيف فيه ، فيقول مثلاً في ضبط بلدة ميسان بأسنفل مدينة البصرة : « وميسان بفتح الميم ، وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة ، وبعد الألف نون » . وليس بعد هذا التقييد الشديد في الضبط مجال لتحريف أو تصحيف كما وقع في كثير من كتب المؤرخين السابقين .

وقد أعلن ابن خلكان منهجه في التحقيق قائلاً : « إني بذلت الجهد في التقاطه من مظان الصحة ، ولم أتساهل في نقله ممن لا يوثق به ، بل تحريت فيه حسبما وصلت القدرة إليه » وفحوى هذا الكلام الوجيز الدقيق أن ابن خلكان بذل الجهد في الرجوع إلى المظان الصحيحة ليأخذ عنها تراجم الرجال وأخبارهم ، وأنه تحاشى المصادر غير الموثوق بها ، ولم يتساهل في هذه الناحية ، وأنه قصد وجه التحري في كتابة التراجم كما أسعفته قدرته ، وساعدته منته .

ولقد ضاع — فيما ضاع من تراث الإسلام — كثير من المراجع التي رجع إليها ابن خلكان واستمد منها مادة تراجمه ، ومن هنا يعد كتابه « وفيات الأعيان »

— فوق قيمته في التراجم — وعاء لكثير من الكتب التي أضاعها الزمان ، وبعثتها يد الحدثان .

أما مراجعه الحية المعاصرة له فكانت في جماعة كثيرة من الرجال الذين لقيهم وأخذ عنهم ، ويعبر عن ذلك بقوله في مقدمته : « وأخذتُ من أفواه الأئمة المتقين ما لم أجده في كتاب » . وهذا حق . وإلا فمن كان يستطيع غير ابن خلكان أن يروي لنا تلك النادرة الطريفة عن الشاعرة الشامية تقيّة بنت أبي الفرج؟ قال ابن خلكان : « وحكى لي الحافظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى ، رحمه الله ، أن تقيّة المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أنخى السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى ، وكانت القصيدة خمرية ، ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمير . فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها ؟ ! فبلغها ذلك ، فنظمت قصيدة أخرى حربية ، ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ، ثم سيرت إليه تقول : علمى بهذا كعلمى بهذا . . . وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه ! »

هذا هو ابن خلكان الذى ذكر المستشرق نيكلسون فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أنه أول مسلم ألف كتاباً فى التراجم القومية العامة ، وقد دفع تعصب نيكلسون لابن خلكان وإعجابه به أن يقول هذا ناسياً ياقوت الرومى من قبله ، وناسياً الأنبارى صاحب « نزهة الألباء » من قبل . والحق أن فضلها لا يجحد ، وإن كان ابن خلكان أوفى على الغاية حين جمع فى تاريخه أكثر من ثمانمائة ترجمة ، ولولا صنيعه هذا لجهل تاريخ كثير من أعلام المسلمين .

وقد ذهب المستشرق الأستاذ « جب » مذهب نيكلسون ، فذكر فى « دائرة المعارف الإسلامية » أن ابن خلكان ابتدع التأليف فى التراجم الشاملة بنوعها العام . والحق أننا لا ندرى سبباً قوياً يحملهما على هذا الرأى ، فإذا لم تكن تراجم ابن الأنبارى وياقوت الحموى للنحويين ، واللغويين ، والنسابين ، والقراء

والإخباريين ، والمؤرخين ، والوراقين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل ، وأرباب الخطوط ، والمؤلفين والمصنفين — من باب التراجم العامة ، فأين تكون إذن عمومية التراجم ؟

الحق أن ابن خلكان ترجم في كتابه لهذه الطوائف من الناس ، وزاد عليها « كل من له شهرة بين الناس » كما قال في مقدمته . فهو لم يبتدع هذا النوع من التراجم العامة ، ولكنه جاء فوجده ممثلاً في الأنبارى وياقوت ، فزاد عليه وتوسع فيه .

وقد لقي ابن خلكان — أو لقي تاريخ ابن خلكان — ما يستحقه من التقدير والوزن عند العرب والعجم ، وعند الشرقيين والغربيين على السواء . فترجم إلى الفارسية في القرن التاسع الهجرى ، وترجم إلى التركية سنة ١٢٨٠ هـ ، وترجمه المستشرق الفرنسى دى سلان إلى الفرنسية^(١) في القرن الماضى ، وقام جماعة من العلماء على توالى العصور بتذييله ، أو اختصاره ، أو نقده ، كما سنشير إلى ذلك في فصل تال .

التراجم حسب العصور

إن فكرة كتابة التراجم حسب العصور — أو القرون — قد سبق بها الثعالبي المتوفى سنة ٥٤٢٩ هـ حين ترجم في كتابه المشهور « يتيمة الدهر » لأعلام الشعراء في القرن الرابع ، وظلت فكرة التراجم حسب القرون محتجبة في القرنين الخامس والسادس إلى أن جاء المؤرخ علم الدين البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ فألف كتابه : « مختصر المائة السابعة » في تراجم أعيان ذلك القرن ، فكان بذلك أول مؤرخ للتراجم العامة وفق القرون . وفي ذلك القرن نفسه جاء الأدفوى مؤرخ التراجم

(١) ذكر جورجى زيدان في طبعة سنة ١٩٣١ من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن دى سلان ترجم « وفيات الأعيان » إلى الإنجليزية ، والصواب أنه ترجمه إلى الفرنسية .

المصري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فألف كتابه « البدر السافر ، وتحفة المسافر » في تراجم أعلام القرن السابع الهجري . ولا يزال هذان الكتابان مخطوطين في بعض مكتبات أوروبا . ويتميز القرن الثامن الهجري بأنه أول قرن وضع فيه مؤلف طويل في تراجم أعيانه ، فكان بذلك أول كتاب لدينا في الترجمة للرجال على حسب العصور . ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة المؤرخ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، ويحمل عنوان كتابه الدلالة على تراجم ذلك القرن : « الدرر الكامنة ، في أعيان المائة الثامنة » . وقد طبع سنة ١٩٢٩ م في الهند في أربعة أجزاء كبار . ولم يهمل ابن حجر في كتابه الترجمة لأعلام النساء في القرن الثامن ، وقد كانت المرأة المسلمة دائماً في حسابه وهو يؤرخ ، فترجم لها محدثة وراوية وعابدة ، وقد امتلأ كتابه بمئات من تراجم النساء ، وهو في هذا على الضد من المؤرخ ابن خلكان الذي كانت المرأة المسلمة قلة نادرة في كتابه « وفيات الأعيان » .

ويمتاز كتاب « الدرر الكامنة » بترجمته للملوك التتر وأمراء المغول وسلاطين الأتراك ، مما يجعله مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامي في القرن الثامن . على أن ابن حجر - وقد ترجم لرجال المغول والتتر - قد فاته أن يترجم لرجال الهند لبعده ديارها عنه ، فقام السيد عبد الحمى الحسنى من رجال القرن الثالث عشر الهجري فألف كتابه « نزهة الخواطر » مترجماً به علماء الهند في القرن الثامن ، فكان بذلك مكملًا لكتاب « الدرر الكامنة » .

ومنذ كتاب ابن حجر في تراجم المائة الثامنة أخذت تظهر كتب التراجم للقرون الإسلامية التالية ، فظهر كتاب « الضوء اللامع ، في أعيان القرن التاسع ^(١) » للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ، و « الكواكب السائرة ، بأعيان المائة العاشرة » ^(٢) للمؤرخ نجم الدين الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ هـ ، و « خلاصة الأثر

(١) طبع هذا الكتاب في مصر .

(٢) طبعت أجزاء من هذا الكتاب في مطبعة الجامعة الأمريكية ببيروت بتحقيق الأستاذ جبرائيل سليمان جبور .

في أعيان القرن (١) الحادى عشر « للمؤرخ محمد أمين بن فضل الله المحبى المتوفى سنة ١١١١ هـ ، و « سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر » لشيخ الإسلام محمد خليل المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ (٢) . وقد ظهر بأخرة من الزمان كتاب صغير الحجم للمرحوم أحمد تيمور باشا المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ بعنوان « تراجم أعيان القرن الثالث عشر ، وأوائل الرابع عشر » ، وفيه أربع وعشرون ترجمة ، ويظهر أن المؤلف كان في نيته إتمام الكتاب إلا أن المنية عاجلته ، فلم يستوعب تراجم القرن الثالث عشر كله ، وقد طبع ما وجد مخطوطاً من الأصل بعد وفاة صاحبه .

وقد اتجه بعض كتاب التراجم إلى الترجمة لرجال عصرهم المعاصرين لهم أو لشيونخهم ، كما فعل صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ في كتابه « أعيان العصر ، وأعوان النصر » ، وابن فضل الله العمري المتوفى ٧٤٨ هـ في كتابه « ذهبية القصر ، في أعيان العصر » ، وأبو شامة المتوفى ٦٦٥ هـ في كتابه « الذيل على الروضتين » الذى ترجم فيه لمن عاصروهم من أعيان القرنين السادس والسابع ، والذهبي المؤرخ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ في « معجم أشياخه » الذى ترجم فيه لقرابة ١٣٠٠ شيخ ، وابن حجر فى كتابه « المجمع المؤسس ، للمعجم المفهرس » وقد ترجم فيه لأساتذته وشيوخه .

ولسنا الآن بسبيل إحصاء هذه الكتب ، ولكن ما ذكر منها يغنى عن الكثير مما لم تدع حاجة إلى ذكره .

التراجم سنة سنة

لقد كان فى نية ابن خلكان أن يرتب كتابه « وفيات الأعيان » على حسب

(١) طبع فى مصر فى أربعة أجزاء .

(٢) طبع فى أربعة أجزاء . ثلاثة منها فى الاستانة ، والرابع فى مطبعة بولاق بمصر .

السنين ، ولكنه عدل عن ذلك إلى الترتيب الهجائي للأسماء ، تسهيلاً لتناول الكتاب كما سبق القول . وقد نهض ابن شاكر الكتبي المتوفى ٧٦٤ هـ بما لم ينهض به ابن مخلكان ، فألف كتابه « عيون التواريخ » في التراجم مرتباً على حسب السنين وانتهى فيه إلى سنة ٧٦٠ هـ . وقد اتجه بعض مؤرخي المسلمين إلى الترجمة للرجال حسب وفيات كل سنة ، ففي كل سنة يذكر المؤرخ أهم من ماتوا فيها من الرجال في كل بلد ويترجم لهم تراجم تطول أو تقصر حسب أهميتهم ، كما فعل ابن الجوزي في كتابه « المنتظم » ، وكما فعل ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » . والحق أن في هذا النوع من الكتب تراجم هامة تكمل معارفنا عن كثير من الأعلام الذين نريد الوقوف على تاريخ حياتهم . ففي « البداية والنهاية » مثلاً نجد في نهاية الأحداث في كل سنة باباً لذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان في كل ميدان من ميادين العلم والأدب والحكم والسياسة وغيرها .

غير أن كتاباً هاماً في هذا الباب لا يجدر بنا إغفاله ، وهو كتاب « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي المؤرخ المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ . فهو يذكر السنين من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الألف ، وفي كل سنة يذكر وفيات من ماتوا فيها من أعلام المسلمين في كل ناحية وفي كل ميدان ، ويترجم لكل رجل ترجمة وجيزة جدا ، وقد لا تزيد الترجمة على ذكر الاسم والنسبة وبعض الأعمال والآثار والتصانيف إن كان المترجم له مؤلفاً ، وبعض الشيوخ والتلاميذ إن كان راوياً ، وبعض الأخبار في إيجاز .

وعلى الرغم من قيمة هذا الكتاب فإنه لا يسعف طالب الترجمة إلا إذا كان عالماً بتاريخ وفاة صاحبها . ومن هنا لم يكن كتاباً في التراجم أكثر مما هو سجل تاريخي لوفيات الرجال حسب السنين ، لا حسب الأسماء . وبهذا حقق في الوفيات لألف عام ما عدل ابن مخلكان عنه في وفيات سبعة قرون .

التراجم في كتب التاريخ العام

حرص بعض المؤرخين المسلمين وهم يؤرخون تاريخاً سياسياً عاماً للدول الإسلامية المتعاقبة أن لا تفوتهم تراجم الرجال بعد ذكر الحوادث السياسية العامة في كل سنة ، ولا نجد مثل هذا في الكتاب الذي ألفه الطبري عمدة المؤرخين في القرن الرابع الهجري ، فإنه اهتم بالأحداث أكثر مما اهتم بوفيات الرجال وتراجمهم . على حين نجد مؤرخاً كابن الجوزي المتوفى سنة ٥٧٩ هـ يهتم في كتابه « المنتظم » بوفيات الرجال وتراجمهم سنة بعد سنة حتى لتطغى فيه تراجم الوفيات على الأحداث السياسية العامة التي كانت موضع الاعتبار الأول عند الطبري مثلاً . وعلى الرغم من اهتمام ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ بتراجم الوفيات في كتابه « الكامل » فإنها كانت باعتماد كبير ولم تطغ على سير الحوادث التي كان الرجل معنًى بإبرازها . ولقد اهتم الذهبي المؤرخ في كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » بذكر الوفيات سنة ، وذكر طبقاتهم وشيوخهم وأخبارهم في اختصار ، وكذلك فعل سبط ابن الجوزي المؤرخ المتوفى سنة ٦٥٤ هـ في كتابه « مرآة الزمان » ؛ كما فعل ابن كثير في « البداية والنهاية » ، وكما صنع ابن تغرى بردى المؤرخ المصرى في كتابه « النجوم الزاهرة » ، والسيوطى المؤرخ في كتابه « حسن المحاضرة » ففيه من تراجم الرجال ما لا غنى لمؤرخ ولا أديب عنه .

ولن نغفل في هذا المقام أن نشير إلى مؤرخ مصر في القرن الثالث عشر الهجري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى سنة ١٨٢٥ م ، فإنه ملأ كتابه المشهور « عجائب الآثار » ، في التراجم والأخبار « بتراجم كثيرة لرجال القرن الثاني عشر الهجري ، وقد زاد فيها على ما احتواه كتاب « سلك الدرر » للمرادى واستدرك ما فاته من مشاهير الأعلام ، وأشار إلى هذا وهو يترجم للمرادى في الجزء الثاني من تاريخه المشهور .

وقد يقتضى النسب والمناسبة بين التاريخ والتراجم أن يودع فى كتب التاريخ تراجم الرجال على نحو ما رأينا ، ولكن بعض الأدياء زاد فى ذلك وأدخل التراجم فى كتب الشروح الغزوية والنحوية والأدبية ، كما فعل ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ فى شرحه لرسالة ابن زيدون المسمى « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » فقد ملأ هذا الشرح الأدبى اللغوى بتراجم كثيرة لأعلام المسلمين وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى رسالة ابن زيدون كالمتمنى وأرسطاطاليس وأفلاطون وبنار والجاحظ وعشرات غيرهم ، وكما صنع البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ فى « خزنة الأدب » ، وعبد الرحيم العباسى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ فى كتابه « معاهد التنصيص » وهو شرح لشواهد التلخيص فى علوم البلاغة ، وقد عنى العباسى نفسه فى التفتيش عن التراجم فى كتب الأدب وفى مظانها ، وترك من لم يستطع الحصول على تراجمهم بعد طول الدأب ، وكثرة النصب .

الطبقات في التراجم

طبقات الصحابة

إن كتب الطبقات هي نوع من التراجم يرتب فيه الرجال ويجمعون بحسب العلم الذي تخصصوا فيه وتفرغوا له ، لا بأى اعتبار آخر من اعتبارات الزمان وترتيب الأسماء . وأول من ألف في طبقات الصحابة الإمام البخارى في « التاريخ الكبير » ، وابن سعد في « طبقاته » . وقام سبق أن قلنا إن القصد من كتب طبقات الرجال هو خدمة الحديث النبوى بالحكم على رواته ، ووزنهم بأدق الموازين في الرواية والإسناد ، وجرحهم أو تعديلهم .

وقد أخذ المصنفون بعد ذلك يؤلفون في طبقات الصحابة وأخبارهم ومناقبهم إلى أن جاء القرن الخامس الهجرى فكتب ابن عبد البر النمرى القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ معجمه التاريخى الكبير للصحابة ورواة الحديث ، وأسماء « الاستيعاب » ، في معرفة الأصحاب » وقد رتب أسماء الصحابة فيه ترتيباً هجائياً على طريقة أهل المغرب في ترتيب حروف الهجاء ، ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة آلاف وخمسة مائة ترجمة ، ويظهر في هذا الكتاب الفخم اتجاه المؤلف إلى الحديث أكثر من اتجاهه التاريخى ، فهو محدث قرطبة بل أكبر محدثيها في عصره ، ولكن معرفته بطبقات الصحابة المحدثين جعلت من كتابه مرجعاً مؤرخى رواة الحديث وفى القرن السابع الهجرى انفرد المؤرخ عز الدين ابن الأثير - صاحب كتاب « الكامل » المشهور فى التاريخ السياسى العام - بمعجمه الكبير فى تراجم الصحابة وقد أربى عدد التراجم فيه على ضعف عددها فى كتاب « الاستيعاب » حيث بلغت سبعة آلاف وخمسة مائة ترجمة . واسم كتاب ابن الأثير : « أسد الغابة » ، فى

معرفة الصحابة » . وقد اعتمد ابن الأثير على ما ألف من الكتب قبله في طبقات الرجال ، وخاصة كتب ابن مندة ، وأبي نعيم الأصفهاني ، وابن عبد البر النمري ، وأبي موسى المديني .

ولما جاء القرن التاسع الهجري كانت تراجم الصحابة قد بلغت أوجهها في الكتاب الضخم الذي ألفه المؤرخ ابن حجر العسقلاني بعنوان « الإصابة » ، في تمييز الصحابة » وقد رتبت الأسماء فيه على حروف المعجم ، وهو جامع لما ذكرناه من الكتب السابقة ، وزاد عليها كثيراً واستدرك ، ودفع كثيراً من الوهم والغلط فيما وقع في التراجم . وأفرد في أحد أجزائه قسماً خاصاً للصحابييات ، أما الصحابة المعروفون بكناهم فقد جعل لهم جزءاً مستقلاً .

طبقات الفقهاء

لقد لقي فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة كثيراً من عناية المؤرخين وكتاب الطبقات حين ترجموا لهم في طبقات الفقهاء عامة ، أو في طبقات المذهب الذي يمثلونه . وكان رجال كل مذهب حريصين على أن يؤرخوا لطبقات الرجال فيه منذ اتصال الطبقة الأولى بالإمام الأول للمذهب . ومن أقدم الكتب في هذا الباب كتاب « طبقات الفقهاء والمحدثين » الذي ألفه الهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وفي القرن الخامس الهجري ظهر كتاب « طبقات الفقهاء » لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ويصفه المؤرخ السخاوي بأنه مختصر جدا ، وهو في طبقات المذاهب الأربعة مضافاً إليها المذهب الظاهري الذي أنشأه داود الظاهري الإمام المجتهد الآخذ بظاهر الكتاب والسنة والإعراض عن التأويل والرأي والقياس » توفي سنة ٢٧٠ هـ .

أما الطبقات الخاصة برجال كل مذهب فكثيرة ، فللشافعية « طبقات الشافعية الكبرى » التي ألفها تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ ، و « طبقات

الشافعية» لابن قاضي شهبة الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ هـ . وقد بلغ هذا تراجم رجال المذهب الشافعي إلى سنة ٨٤٠ هـ . واتبع السبكي في ترتيب طبقاته طريقة تقسيمهم إلى طبقات بحسب القرون ، وقد جمع رجال كل قرن مرتين حسب أسمائهم .

وللحنفية كتاب في «طبقات الحنفية» لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي المتوفى سنة ٧٧٥ هـ ، وهو أول كتاب صنف في تراجمهم ، وعنوانه «الجواهر المضيئة ، في طبقات الحنفية» ، وقد طبع في حيدر آباد بالهند منذ أربعين عاماً ، في جزئين كبيرين . وفي القرن التاسع ألف المؤرخ ابن دقماق المصري المتوفى سنة ٨٠٩ هـ كتاب «نظم الجمان ، في طبقات أصحاب إمامنا النعمان» ، والجزء الأول منه في مناقب الإمام أبي حنيفة ، وقد ظهرت بعد ذلك كتب في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ ، ولقيتالي زاده المتوفى سنة ٩٧٩ هـ ، ولتقى الدين بن عبد القادر المصري المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ صاحب كتاب «الطبقات السننية في تراجم الحنفية» ، وقد انتهت إليه تراجم رجال المذهب الحنفي كما انتهت إلى ابن حجر المؤرخ تراجم الصحابة في القرن التاسع .

وللحنابلة طبقات أبي الحسين بن أبي يعلى الفراء الشهيد سنة ٥٢٦ هـ (١) وقد سطر فيه — كما يقول في المقدمة — ما انتهى إليه من أخبار شيوخه أصحاب الإمام الأفضل أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، وبلغ بالتراجم فيه إلى سنة ٥١٢ هـ ، وقد ذيله ابن رجب الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ، وبلغ بالتراجم فيه إلى سنة ٧٥٠ هـ ، ونشر المعهد الفرنسي بدمشق بعض أجزاءه محققاً ومفهرساً بعناية الدكتور سامي الدهمان ، والأستاذ هنري لاوست .

وللمالكية كتاب «المدارك» للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، وبعضهم

(١) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٥٢ بتصحيح الشيخ محمد حامد الفوق .

يسمى الكتاب « طبقات المالكية » ، وهو أول كتاب ألف في تراجم رجال هذا المذهب ، ولعله فقد فيما ضاع من التراث الإسلامى ، وقد وصفه المؤرخ السخاوى بأنه حافل . أما المرجع الذى بين أيدينا الآن فهو كتاب « الديقاج المذهب » ، فى علماء المذهب « لابن فرحون المالكى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ، وهو مرتب على حروف المعجم ، وقد فرغ المؤلف من تأليفه سنة ٧٦١ هـ . وفى أول الكتاب أبواب فى ترجيح مذهب الإمام مالك ونسبه وصفاته وشهادة أهل العلم والصلاح له بالإمامة ، وتحريه فى الفتيا ، واتباعه السنن وكراهته المحدثات من البدع ، والحديث عن كتابه « الموطأ » وأخباره ومحنته . وبما . ذلك يأخذ المؤلف فى الترجمة لرجال المذهب مرتبة أسماءهم بحسب حروف الهجاء .

ولن نختم هذا الباب دون الإشارة إلى كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » للإمام محيى الدين بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ فهو يترجم للرجال الذين تقع أسماءهم فى كتب الشافعية كالمختصر للمزنى ، والمهذب ، والتنبيه ، والوسيط والوجيز ، والروضة وغيرها من الكتب المتداولة فى فقه الإمام الشافعى ، وهى أسماء كثيرة تزيد على ألف ومائتين من الرجال والنساء ، بدأها بترجمة النبى محمد عليه السلام ، ثم الإمام محمد بن إدريس الشافعى إمام المذهب الذى يترجم لرجالها ، ثم المحمدين بعد ذلك ، ثم يأخذ فى الترتيب حسب حروف المعجم من الهمزة إلى الياء ؛ وهو يهتم بأنساب هؤلاء الرجال وشيوخهم وتلاميذهم ووفياتهم والمواضع التى وردت فيها أسماءهم فى كتب الشافعية التى سبقت الإشارة إليها .

طبقات المفسرين والقراء

حينما اتجه كتاب التراجم إلى الكتابة فى طبقات الرجال فإنهم لم يغفلوا الترجمة للمشتغلين بالعلوم القرآنية تفسيراً وقراءة ، ولكن هذه الحركة لم تقم مع حركة طبقات رجال الحديث والحفاظ ، وإنما جاءت متأخرة عنها ، والسبب فى هذا

واضح ، فإن العناية بتدوين الحديث خشية ضياعه قد دعت إلى العناية برجاله ورواته وذكر أخبارهم حتى تتضح مواقفهم من ناحية الجرح والتعديل والقوة والضعف في الإسناد . ولما كانت حركة تدوين الحديث سابقة منذ القرن الثاني الهجري فقد تبع ذلك سبق في كتاب طبقات المحدثين .

أما المفسرون فقد تأخرت كتابة تراجمهم وطبقاتهم في كتب مستقلة حتى العصر المملوكي ، وإن كان ذلك لم يمنع من ذكر تراجمهم متفرقة في طبقات أخرى كطبقات الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية ، فإن هؤلاء المفسرين الكتاب الله لم يخرجوا عن كونهم فقهاء أو من رجال المذاهب الإسلامية .

وأقدم ما نعرفه من « طبقات المفسرين » كتاب بهذا العنوان ألفه الإمام السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ، ثم جاء بعده تلميذه الداودي المالكي المتوفى سنة ٩٤١هـ ، فألف معجماً أجمدياً في تراجم المفسرين .

أما القراء — وهم الذين قرءوا القرآن بطرق أداء مختلفة للكلمات — كابن عامر المتوفى سنة ١١٨هـ ، وابن كثير المتوفى سنة ١٢٠هـ ، وعاصم المتوفى سنة ١٢٧هـ وغيرهم فقد وضعت فيهم كتب الطبقات ترجمة لهم ووصفاً لأحوالهم ، وتاريخاً لرجال هذا العلم كما أرخ لغيره من العلوم . ومن أقدم الكتب في هذا الشأن « طبقات القراء » لأبي عمرو عثمان الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ ، وكتاب « غاية النهاية » في رجال القراءات أولى الرواية والدراية « لشمس الدين الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ ، وهو « أجمع الكتب في هذا النوع » كما يقول صاحب « كشف الظنون » . على أن الإمام الذهبي المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٧٤٨هـ وصاحب « تاريخ الإسلام » قد ألف كتاباً في طبقات القراء اختصره من تاريخه الكبير . وهناك كتب أخرى في هذا الباب لم نذكرها لأننا في غير مقام الإحصاء .

طبقات المحدثين والحفاظ

تكاد تكون الكتب التي ألفت في تراجم رجال الحديث وطبقاتهم أكثر ما تضمه المكتبة العربية الإسلامية من كتب تراجم الرجال ، وقد يضيق بذكرها مجال كهذا هو لبيان الاتجاهات أكثر مما هو لسرد الأسماء . على أننا لا نجد بنا إغفال كتاب « الكمال » الذي ألفه أبو محمد عبد الغنى المقدسى الجماعيل المتوفى سنة ٦٠٠ هـ وجعله معجماً مطولاً لأسماء رجال الحديث الذين وردوا في كتب الحديث الستة ، ورتبه على حروف الهجاء . ثم جاء أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني المتوفى سنة ٧٤٢ هـ فهذه في كتاب أسماه « تهذيب الكمال » ، وجاء المؤرخ الذهبي فرتب التهذيب ولخصه وزاد عليه وأسماه « تذهيب تهذيب الكمال » ، ثم جاء ابن حجر العسقلاني المؤرخ المحدث الحافظ « ٨٥٢ هـ » فهذب تهذيب الكمال في كتاب أسماه « تهذيب تهذيب الكمال » ، في معرفة الرجال « طبع بالهند في اثني عشر جزءاً سنة ١٣٢٥ هـ ، فكان آخر ما انتهت إليه طبقات رجال الحديث من التهذيب والإتقان . على أننا لا ننسى معاصراً لابن حجر ألف كتاباً في « طبقات المحدثين » من زمن الصحابة إلى أوائل القرن التاسع ، وهو سراج الدين عمر بن الملتن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤ هـ .

وقد أشرنا في الكلام على طبقات الفقهاء إلى الهيثم بن عدى « ٢٠٧ هـ » الذي ألف كتاباً في طبقات الفقهاء والمحدثين ، فكان بذلك أقدم من نعرف من المؤلفين في طبقات رجال الحديث .

أما الحفاظ فهم الرجال الذين امتازوا بحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكتفى في الحفاظ بحفظ المتن نفسه ، بل عليه أن يحفظ سلسلة سند الحديث لا يخرم منه حرفاً ، ولا يسقط راوياً . وفي ذلك من المشقة وإجهاد

الحافظة وتطلب القوة فيها ما ليس في رواة الأدب والشعر ، وكان لحفاظ الحديث في ذلك مقدره عجيبة ، فقد حكوا أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٣١٦ هـ كان يحدث في دار الوزير علي بن عيسى ، وقد نصب له السلطان منبراً يحدث عليه ، فلما خرج مرة إلى سجستان سأله أهلها أن يحدثهم ، فقال : ما معي أصل ؛ فقالوا : ابن داود وأصول ؟ ! فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد قال البغداديون : مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس ! ثم فيجوا فيجا بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتبت وحىء بها ، وعرضت على حفاظ بغداد ، فخطأوه في ستة أحاديث ! لم يكن أخطأ إلا في ثلاثة منها .

وتبين لنا القصة التالية وجه المشقة في حفظ الحديث أكثر من حفظ الشعر ، فقد جاء أبو الفضل الهمداني المتوفى ٣٩٨ هـ نيسابور فأعجب الناس بكثرة حفظه وتعصبوا له ولقبوه ببديع الزمان . وأعجب الهمداني بنفسه لأنه كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت بين يديه مرة ، وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة . وبلغ به الإعجاب أنه أنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث ، وقال : هل حفظ الحديث مما يذكر ؟ ؟ فسمع به الحاكم النيسابوري ، فوجه إليه بجزء من الحديث ، وأمهله أسبوعاً في حفظه ، فرد بديع الزمان إليه الجزء بعد الأسبوع قائلاً : من يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان ، وجعفر بن فلان ، عن فلان ! أسام مختلفة ، وألفاظ متباينة ! فقال له الحاكم : إذن فاعرف نفسك ! واعلم أن حفظ هذا أضييق مما أنت فيه !

هؤلاء هم حفاظ الحديث ، وهذه هي مقدرتهم في حفظ الحديث النبوي ، وقد ألفت كتب في تراجمهم وطبقاتهم ، من أقدمها كتاب « طبقات الحفاظ » للمؤرخ شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ، وقد اقتطعه من كتاب الواسع في التاريخ وطبقات المشاهير الأعلام . وقد ذيل عليه جماعة من العلماء والمؤرخين ،

منهم الحافظ الحسيني الدمشقي « ٧٦٥ هـ » ؛ والحافظ ابن فهد المكي « ٨٧١ هـ » (١) في كتابه « لحظ الألاحظ ، بذيل طبقات الحفاظ » ؛ والحافظ السيوطي المؤرخ « ٩١١ هـ » .

طبقات النحاة

لقد كان للنحويين واللغويين كتب الطبقات الخاصة بهم ، وقد شهد القرن الثالث الهجري أول كتاب ألف في تراجمهم صنفه أبو العباس المبرد النحوي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، ولكنه اقتصر فيه على رجال مدرسة البصرة التي كانت المدرسة النحوية القوية المقابلة لمدرسة الكوفة ، وفي القرن الرابع ظهر كتابان في تراجم النحاة : أولهما لأبي سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ الذي ألف كتاب « أخبار النحويين البصريين » (٢) وهو موجز صغير الحجم ، أما الكتاب الثاني فهو « طبقات النحويين واللغويين » (٣) الذي ألفه أبو بكر بن الحسن الزبيدي المتوفى ٣٧٩ سنة هـ ، وترجم فيه لأعلام النحاة واللغويين منذ أيام أبي الأسود الدؤلي حتى بلغ شيخه الرباعي المتوفى سنة ٣٥٨ هـ ، وقد استفاد من هذا الأصل في تراجم النحاة وأهل اللغة كثير ممن كتبوا في التراجم بعد ذلك كابن الفرضي الأندلسي « ٤٠٣ هـ » ، وياقوت الرومي ، والقفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ، والسيوطي ، والمقرئزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وغيرهم .

وفي القرن السابع الهجري ظهر كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للوزير جمال الدين القفطي ، بدأه بترجمة شيوخ النحو في عهد أبي الأسود حتى

(١) ذكر في « كشف الظنون » أنه توفي سنة ٨٩٠ هـ . والصواب ما نقلناه عن « الضوء اللامع » للسخاوي .

(٢) نشره معهد المباحث الشرقية بالجزائر بتهديب المستشرق ف . كرنكو سنة ١٩٣٦ م

(٣) نشر أخيراً بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

عصر المؤلف ، والتراجم مرتبة فيه على حسب حروف الهجاء ، وقد بلغت قرابة ألف ترجمة لعلماء النحو في كل عصر وفي كل أرض إسلامية ، حتى أولئك الذين في جزيرة صقلية وغزنة وما وراء النهر .

وقد اعتمد القفطى على ما كتب قبله من التراجم وعلى رواياته ومسموعاته من الشيوخ والرجال الذين لقيهم في أسفاره ، وعلى ما دار بينه وبين العلماء من مكاتبات .

على أن مشكلة الأسماء والألقاب والكنى والشهرة قد صادفت القفطى ولم يستطع التغلب عليها ، فقد يكرر الترجمة للشخص مرتين ، مرة باسمه ومرة بكنيته أو بشهرته ، ولكن ذلك وقع في الكتاب على قلة .

ولما كان القفطى حريصاً على الترجمة لمن كان له أدنى مشاركة في النحو أو اللغة فقد حفل كتابه الضخم بترجمة كثيرين من الأدباء والشعراء والكتاب والفقهاء والمحدثين وغيرهم ممن أسهموا في النحو ولو بأدنى نصيب ، ومن هنا كان « إنباه الرواة » كتاباً في تراجم الأدباء والعلماء عامة (١) .

وقد انتهت الكتابة في تراجم النحاة إلى الإمام المؤرخ السيوطى « ٩١١ هـ » في كتابه « بغية الوعاة ، في طبقات اللغويين والنحاة » ، وقد ترجم للنحاة من عهد أبى الأسود إلى عصره ، فكان نهاية المطاف في تراجم النحويين ، ورتب التراجم على حروف المعجم ، ولكنه بدأ بذكر من اسمه محمد تيمناً بالاسم النبوى الكريم ، ثم تلا ذلك بأسماء الأحمدين ، وبعد ذلك اتبع ترتيب حروف الهجاء . وقد يكون من النصفة للرجال أن نشير إلى الكتاب الضخم الذى ألفه تاج الدين ابن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وأسماه « الجمع المثناة ، في أخبار اللغويين

(١) بذل الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في تحقيق هذا الكتاب الثمين جهداً كبيراً جديراً بالثناء عليه ، وقد توج الجهد بذكر مصادر الترجمة المتنوعة الكثيرة وأجزائها وأرقام صفحتها لكل نحوى أو أديب مترجم له .

والنحاة» ، وقد أشار إليه السخاوى ، وذكر أنه وقف على عدة أجزاء منه بنخط المؤلف ، وبلغت تراجم «المحمدين» فيه وحدهم مجلداً كبيراً . ويقول عنه حاجى خليفة صاحب «كشف الظنون» إنه «كتاب كبير فى نحو عشر مجلدات ، لكنه لم ينتشر ، وبقي فى المسودة فتمفرقت» ، وقد يكون هذا هو الملخص لكتاب «إنباه الرواة» ، وتوجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .

طبقات الشعراء

لقد سبق ابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ هـ كتاب الطبقات والتراجم فى كتابه الذى ألفه فى «طبقات فحول الشعراء» ، والحق أنه من أول الكتب فى هذا الفن ، وقد أخذ المؤلفون بعد ذلك يصنفون فى تراجم الرجال على حسب طبقاتهم وتصنيف علومهم ، ولعل كتاب الجمحى كان رداً أو تصحيحاً لوضع المؤرخ محمد بن إسحاق وموقفه من الشعر العربى ، فقد اتهم هذا الراوية المؤرخ الكبير بأنه ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه ، على علمه بالسير ، وقد قبل الناس منه هذه الأشعار المضعفة ، وكان هو يعتذر من ذلك بقوله : لا علم لى بالشعر ؛ وقد لامة ابن سلام قائلًا : أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن آداه منذ آلاف من السنين؟

لهذا حرص ابن سلام الجمحى على تأليف كتابه فى طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، حتى لا يكون الجهل بتاريخهم ومنازلهم فى الشعر أدعى إلى الجهل بثروة تعد من أصول الأدب العربى . وقد حمل الشك والريبة فى الشعر المروى ابن سلام على أن يعرف طبقات الشعراء وأخبارهم ، كما حمل الحرص فى تلوين الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف الكتب فى الرجال والرواة وأصحاب السند وجرحهم وتعديلهم .

ولم يكن ابن سلام أديباً أكثر مما كان مؤرخاً وراوياً للشعر ، إلا أن ناحية

الأدب في تراجم الشعراء تظهر لنا بوضوح عند الأديب المؤرخ ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « الشعر والشعراء ^(١) » الذي يحتوي « على تراجم المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله » . ويدلنا هذا النص من مقدمة الرجل على أن الهمة من تراجم الشعراء كانت منصرفة إلى خدمة اللغة والنحو والقرآن الكريم .

وفي القرن الرابع الهجري اتجه الإمام أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ إلى الترجمة للشعراء بحسب جماعات الأسماء ، فهناك مثلاً جماعات الشعراء المسمين باسم عمرو ، وهناك المسمون باسم عمارة ، وهناك المسمون باسم موسى ، وهكذا ، وهو ترتيب على حروف المعجم إلا أنه جمع الأسماء المتشابهة في باب واحد . والحق أن في هذا الكتاب من التراجم ما لا نجده في مصدر آخر ، أو ما نجده مشقة كبيرة في الحصول عليه .

وفي ذلك القرن بالذات نجد شعراء القرن الرابع في جميع أقطار الإسلام يترجم لهم وتجمع أخبارهم وأشعارهم في كتاب ألفه الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وقد أسمى كتابه « يتيمة الدهر » . والحق أن هذا الكتاب صورة صادقة حية لتطور الشعر العربي في القرن الرابع ، وللأبواب الكثيرة التي طرقها ، وللشعراء الذين كانوا في ذلك العصر يملأون الدنيا مدحاً وهجاء وغناء ووصفاً ومعاتبات تصور لنا روح المرح والدعابة . ولم يرتب الثعالبي كتابه حسب الأسماء ، ولكنه رتبته على حسب الأقاليم الإسلامية العربية ، فهناك قسم لشعراء آل حمدان والشام ومصر والمغرب ، وهناك قسم لشعراء العراق ، وثالث لشعراء فارس وجرجان وأصفهان وطبرستان ، ورابع لشعراء خراسان وما وراء النهر . وتمتاز « يتيمة » بأنها حفظت لنا نماذج كثيرة فاتنة من الشعر العربي في القرن الرابع ، ولم يكن مجالها محصوراً ضيقاً

(١) نشر هذا الكتاب محققاً مشروحاً مفهوماً بعناية الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر .

في العراق والشام ومصر ، بل ذهب إلى أبعد الحدود وما وراء التخوم . فهو يصور لنا مثلاً حالة الأدب والشعر في الدولة الحمدانية ودولة بني بويه ، والدولة السامانية ، والدولة الغزنوية مما قد كان محتملاً أن يكون مظنة الضياع ، لو لم يحفظه لنا الثعالبي .

وقد يقال إن الثعالبي قد تأنق في صوغ عبارات الكتاب وأكثر السجع في تراجمه مما قد يكون على حساب المعنى والدقة في الترجمة ، وعند الرجل أنه كان صدى لوحى عصره ، وما ظنك بكاتب يعاصر الخوارزمي والصنابي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الحمداني وغيرهم من أئمة السجع في النثر العربي ؟

وقد يقال أيضاً إن الثعالبي لم يهتم بمواليد الشعراء ووفياتهم وأهمل تلك الناحية الهامة في الترجمة ، إلا أن الرجل كان منشئاً أكثر مما كان مؤرخاً ومترجماً ، فغلبت عليه صفته . ولكن ذلك لا ينقص من قدر هذا الكتاب الجليل .

ومن كتب التراجم للشعراء كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو لم يوضع في الأصل ليكون كتاباً في الترجمة للشعراء ، وإنما وضع للأصوات التي كان الرشيد أمر إبراهيم الموصلي مغنيه وغيره أن يختاروها له . وقد توسع أبو الفرج في الكتاب فاستطرد كثيراً في ذكر الشعراء أصحاب الأبيات التي تغنى ، وترجم لهم من عهد الجاهلية إلى عصره ، وروى أكثر قصائدهم ، ولم بكثير من أخبارهم ، فكان كتابه بذلك موسوعة كبرى لا للشعر وحده ، ولكن للأدب العربي على جهة العموم .

وقد أتم الباخريزي « ٤٦٧ هـ » صاحب « دمية القصر » ، والوراق الخطيري صاحب « زينة الدهر » المتوفى سنة ٥٦٨ هـ ، والعماد الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ صاحب « نخريدة القصر وجريدة أهل العصر » كتاب اليتيمة للثعالبي ، وبلغوا بتراجم الشعراء فيه إلى القرن السادس الهجري . وفي القرن السابع كتب ملك من ملوك بني

أيوب كتاباً في « طبقات الشعراء » دل على اهتمام أبي المعالي الملك المنصور بن أيوب بأخبار الشعراء .

وقد رأينا النزعة الإقليمية تظهر في تراجم الشعراء عند ما ألف ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٦٧٣ هـ كتابه «القدح المعلى» في التاريخ المحلي» الذي ترجم فيه لشعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع الهجري . والحق أن الثعالبي صاحب «اليتيمة» كان أوسع نظرة إلى هذا الموضوع فترجم لشعراء المسلمين في داني الأرض وبعيدها كما سلف القول .

ولقد عادت النزعة الإسلامية العامة إلى الظهور حينما ألف ابن معصوم الحسيني المتوفى سنة ١١٠٤ هـ كتابه «سلافة العصر» في محاسن أعيان العصر» ، وقد ترجم فيه لشعراء القرن الحادي عشر الهجري، في الشام ومصر وأهل الحرمين واليمن والعراق والبحرين والعجم والمغرب .

طبقات الصوفية

لقيت طبقات الصوفية اهتماماً كثيراً من مؤرخي المسلمين وكتاب التراجم في هذا الباب ، وقد عد السخاوي المؤرخ ، وحاجي خليفة طائفة كثيرة من هذه الكتب التي يرجع أقدم مؤلفاتها إلى القرن الثالث الهجري، حين وضع محمد بن علي الحكيم الترمذي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ كتابه .

وحفل القرن الرابع ببضعة من كتب تراجم رجال التصوف والنسك، أهمها «طبقات النساك» لابن سعيد الأعرابي المتوفى سنة ٣٤١ هـ ، و «تاريخ الصوفية» لأبي العباس أحمد بن محمد بن زكريا النسوي المتوفى سنة ٣٩٦ هـ ، و «أخبار الصوفية والزهاد» لمحمد بن داود النيسابوري المتوفى سنة ٣٤٢ هـ .

أما القرن الخامس الهجري فكان مظهراً لنشاط اثنين من كبار المشتغلين بتاريخ التصوف والمتصوفة ، وهما أبو عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ،

وأبو نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وقد ترك لنا السلمى كتابه « طبقات الصوفية »^(١) وقسمهم إلى خمس طبقات افتتح الأولى بالفضيل بن عياض ، والثانية بالحنيد ، والثالثة بأبي محمد الجريري ، والرابعة بأبي بكر الشبلي ، والخامسة بأبي سعيد بن الأعرابي ، ولم يراع في الأسماء ترتيباً معجمياً ولكنه راعى الطبقات وحدها ، فيذكر منصور بن عمار قبل أحمد بن عاصم الأنطاكي مثلاً . وليس له منهج موحد في ذكر الموالد والوفيات فحيناً يذكرها ، وكثيراً ما يهملها .

أما أبو نعيم فترك لنا « حلية الأولياء » الذى وصفه السخاوى المؤرخ بأنه « كتاب حافل ، وهو عمدة كل من جاء بعده » وزاد السخاوى على ذلك قوله : « والتقط ابن الجوزى منه ما أودعه من زيادات فى كتابه : « صفة الصفة » . على أننا لن نغفل فى القرن الخامس - أيضاً - الصوفى الكبير أبا القاسم عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ الذى ترجم فى كتابه المشهور : « الرسالة القشيرية » لطائفة من رجال التصوف ، وهو تلميذ السلمى السابق ذكره ، وقد تأثره فى ترتيبه الطبقات .

أما القرن السادس فقد ظهر فيه كتاب « صفة الصفة » للمؤرخ ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وهو يعد - فى الحق - تهنيداً وتخليصاً لحلية أبي نعيم وتصحيحاً لرواياتها ، واتبع فى تبويبه طريقة البلدان ، فبدأ بالمدينة فمكة فبغداد وهكذا حتى بلغ المغرب فالسواحل والفلوات . فإذا ذكر بلداً ذكر طبقات من فيه من النساك وأهل العبادة والزهد من الرجال والنساء . وقد زادت التراجم فيه على ألف ترجمة ، على حين أنها بلغت فى طبقات السلمى مائة وثلاثة من الرجال .

وقد انتهت تراجم الصوفية فى القرن العاشر الهجرى إلى الصوفى المؤرخ عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ فى كتابه : « لوائح الأنوار » ، فى طبقات الأنخيار» وقد اشتهر باسم «طبقات الشعرانى الكبرى» ، وقد ترجم فيه لأهل

(١) نشر أخيراً بتحقيق الأستاذ نور الدين شريعة وقد أحسن بذكر مصادر الترجمة وأجزائها وصفحاتها المترجم لهم ، فسهل بذلك البحث على الباحثين .

التصوف منذ نشأته في الإسلام إلى العصر الذي عاش فيه ، فكان بذلك أوفى وأوسع مرجع لمن تفوتهم تراجم كثير من المتصوفة في غيره من الكتب .

طبقات القضاة

كان القضاء أول الأمر يتولاه النبي عليه السلام بنفسه ، ولما انتشرت الدعوة عهد به إلى بعض ولاته ، وظل الحال على ذلك إلى أن جاء عمر بن الخطاب فعين القضاة في الأمصار المختلفة ، وخصهم بولاية القضاء وحدها ولاية عامة . وأخذ عدد القضاة يتزايد في الأقطار الإسلامية ، وكانت لهم أحكام وآثار وأخبار ، فاتجه كتاب التراجم إلى الترجمة لهم كما ترجموا لغيرهم من أصحاب العلوم والفنون . ولعل أقدم كتاب في طبقات القضاة هو « قضاة البصرة » لأبي عبيدة معمر ابن المنى البصرى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ كما ذكر صاحب « كشف الظنون » .

وقد ظهرت الإقليمية واضحة فيما ألف من كتب طبقات القضاة ، ففي مصر نجد المؤرخ أبا عمر محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٥ هـ . يؤلف كتابه « أخبار القضاة المصريين » وينتهي بهم إلى سنة ٢٤٦ هـ ، ونجد ابن زولاق المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ يؤلف كتاباً يتمم به كتاب الكندى السابق ذكره ، وينتهي به إلى سنة ٣٨٦ هـ أى قبيل وفاته بعام واحد ، وقد أشار السخاوى إلى الكتابين في « الإعلنان بالتوبيخ » . ثم جاء القرن التاسع فوجد المؤرخ ابن حجر يؤلف كتاب « رفع الإصر ، عن قضاة مصر » وقد بلغ فيه بالتراجم للقضاة المصريين إلى المائة الثامنة .

وهنا نجد الشعر يتدخل في الترجمة للقضاة ، فبرى ابن دانيال الموصلى الحكيم ينظم أرجوزة في قضاة مصر سماها « عقود النظام ، فيمن ولى مصر من الحكام » ، وبرى ابن اللبoudى الدمشقى ينظم كذلك أرجوزة في قضاة دمشق . وفي الأندلس نجد مؤلفى الطبقات يؤلفون في تراجم القضاة بالأندلس منذ

أن فتحها المسلمون على يد موسى بن نصير . ومن أوائل المؤلفين في ذلك المؤرخ
 الفقيه أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الحشني المتوفى سنة ٣٦١ هـ ، وقد
 ترجم لقضاة الأندلس حتى سنة ٣٥٦ هـ ، حينما ولي القضاء محمد بن إسحاق بن
 السليم عقب القاضي المشهور منذر بن سعيد . وقد بلغ عدد التراجم في الكتاب
 خمسين ترجمة رتب ترتيباً زمنياً بحسب تتابع القضاة في عمل القضاء . وفي القرن
 الثامن الهجري نجد الشيخ أبا الحسن النباهي المالقي يؤلف كتاباً في تاريخ قضاة
 الأندلس ويسميه « المرقبة العليا » ، فيمن يستحق القضاء والفتيا » وهو يضم إلى
 تراجم القضاة فصولاً في القضاء والعدل والحصول المعتمدة في القضاة ، والتحذير من
 الحكم بالباطل أو الجهل ، وغير ذلك من المسائل التي تتصل بموضوع القضاء .

طبقات الأطباء

من عجب أن يكون نصيب الأطباء في كتب الطبقات والتراجم أدنى نصيب ،
 حتى لم يذكر لهم السخاوي المؤرخ إلا كتاباً واحداً هو كتاب « عيون الأنبياء ،
 في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، وقد بوبه المؤلف
 طبقات بحسب البلاد والأهم والممل . فهناك طبقة الأطباء اليونانيين — وهؤلاء أقسام —
 وهناك الأطباء العرب الذين كانوا في ظهور الإسلام ، وهناك أطباء السريان ،
 وأطباء النقلة والمترجمين من اللسان اليوناني إلى العربي ، وأطباء العراق والجزيرة ،
 وأطباء العجم ، وأطباء الهند ، وأطباء المغرب ، وأطباء مصر ، وأطباء الشام . ولم
 يراع المؤلف ترتيب الأسماء بحسب حروف الهجاء ، فهم يردون في كل طبقة بغير
 ترتيب ، مما يجعل البحث عن المترجم له عملاً صعباً ، ولهذا رتبته على المعجم المنجم
 ابن فهذ كما ذكر السخاوي ، وقد سوغ ابن أبي أصيبعة تصرفه في هذا الترتيب
 غير المعجمي بأنه « ذكر كل واحد منهم في الموضع الأليق به ، على حسب
 طبقاتهم ومراتبهم » .

ولا شك أن الترجمة لأكثر من أربعمائة طبيب في مشارق الأرض ومغاربها وذكر طرف من أخبارهم ونواديرهم ، عمل يحتاج إلى مصادر ومراجع لم يذكرها لنا المؤلف في مقدمته ، ولكنه على كل حال حفظ لنا كثيراً من المعارف الطبية التاريخية في كتب قد ضاعت ولم تصل إلينا اليوم إلا في نتف من هذا الكتاب الذي حققه ونشره المستشرق مركوس مولر ، الذي سمي نفسه باسم « امرؤ القيس بن الطحان » وهو تعريب طريف للاسم الأعجمي !

وقد ظل « عيون الأنباء » منذ منتصف القرن السابع الهجري هو المصدر الوحيد في تراجم الأطباء إلى عصر مؤلفه ، إلى أن جاء المرحوم الدكتور أحمد عيسى الطبيب اللغوي المحقق من أهل زماننا ، فصنع له ذيلاً من سنة ٦٥٠ هـ إلى سنة ١٣٦١ هـ المقابلة لسنة ١٩٤٢ م . فكان بذلك وصلاً لتاريخ الأطباء .

وقد خالف الدكتور أحمد عيسى طريقة سلفه ابن أبي أصيبعة في الترتيب ، فجعل الأعلام في كتابه مرتبة على حروف المعجم تسهيلاً للباحثين ، وتيسيراً على المراجعين .

بقي أن نقول إن هناك طائفة من الحكماء الفلاسفة الذين اشتغلوا بالطب كما اشتغلوا بالفلسفة ، وهؤلاء قد ترجم لهم ابن أبي أصيبعة لأنهم يدخنون في سمط كتابه ، وكذلك فعل القفطي في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » حين ترجم للأطباء الذين اشتغلوا بالحكمة والفلسفة .

طبقات الفلاسفة والحكماء

لعل أقدم كتاب في تاريخ الفلاسفة والحكماء هو كتاب «صوان الحكمة^(١)» الذي ألفه أبو سليمان المنطقي السجستاني من حكماء القرن الرابع الهجري ، وقد

(١) « في كشف الظنون » اسمه «صنوان الحكمة» ، وفي مقدمة « تاريخ حكماء الإسلام » للبيهقي اسمه «صوان الحكمة» ، وكذلك ورد اسمه في متن حكماء الإسلام .

ذكر البيهقي أن له تصانيف كثيرة أكثرها في المعقولات . وفي القرن السادس ظهر كتاب « تاريخ حكماء الإسلام » لظهير الدين البيهقي الحكيم المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وهو غير البيهقي المحدث أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ صاحب « السنن » في الحديث النبوي . ولم يرجع البيهقي الحكيم في تراجم الحكماء والفلاسفة إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس ، إلا قليلا من الحكماء غير المسلمين من أهل القرنين الثالث والرابع . ولم يتعرض لمن ترجم لهم صاحب « صوان الحكمة » من قبله اعتقاداً منه أنه وفاهم حقهم . ولم تتسع تراجمه لأحد من أهل الشام والمغرب والأندلس ، ولعل أحوال عصره وكثرة الفتن والحروب الصليبية في عهده لم تسعفه بما كان يجب أن تتم به تراجمه ، وأكثر تراجمه موجزة حتى لتبلغ في بعض الحكماء ثلاثة أسطر ، كترجمته لمحمد بن أيوب الطبري صاحب الزيج .

أما القرن السابع فقد خلف لنا كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للوزير المؤرخ المصري جمال الدين يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وصاحب كتاب « إنباه الرواة » الذي سبقت الإشارة إليه في الحديث عن طبقات النحويين . وقد ترجم القفطي في كتابه للحكماء عامة عند اليونان والرومان ، وأهل الإسكندرية والفرس والعرب في القديم وبعد المسيحية والإسلام إلى زمانه ، وذكر طرفاً من مآثور قولهم ، ومذاهبهم ومصنفاتهم . ورتبهم فيه على حسب حروف الهجاء ، ثم ألحق بذلك فصلين في الكنى المبدوءة بأبي فلان ، وابن فلان تسهيلاً للتناول . ولا يذكر في التراجم موالد الحكماء ، أما الوفيات فلا يذكرها إلا قليلا .

تواريخ البلدان وتراجم رجالها

حين اتسعت رقعة المملوكة الإسلامية ، وأخذت الأمصار والأقطار يزيد عددها ، وصارت المدن الكبرى والحواضر العظيمة مهوى أفئدة العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم من الأعيان والمشاهير ، أصبحت الضرورة تقضى بأن يؤرخ لهذه البلدان ، لا تواريخ جغرافية ، ولكن تواريخ بيوجرافية تذكر أسماء من ولد فيها أو نشأ بها أو ووفد عليها أو خرج منها ، من العلماء والأدباء والعظماء فى كل علم وفن . فكان من ذلك مجموعة غنية من كتب البلدان الحافلة بالتراجم الكثيرة لأهل هذا الإقليم من المشاهير أو الوافدين عليه .

على أن هناك كتباً فى تواريخ البلدان وجغرافيتها وأخبارها ، ولكنها خالية من التراجم المجزئة ، كما فى كتاب « معجم البلدان » لياقوت الرومى ، وكتاب « المسالك والممالك » للبكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ، وكتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

وهناك كتب تعالج تواريخ البلدان من حيث فتوحها ، وأخبار تلك الفتوح ، وما تم فيها من الأخذ صلحاً أو عنوة ، وما جرى فيها من الحروب ، مثل كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، و « فتوح الشام » لواقلى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

ويهمنا من كتب تواريخ البلدان التى امتلأت بتراجم الرجال طائفة تمل اتجاهات التأليف فى هذا الباب .

وأقدم الكتب فى هذا الباب وأوسعها كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وهو كتاب ضخم تناول فيه مؤلفه أولاً وصف

عاصمة الخلافة العباسية وما كانت عليه من الحضارة والمدنية ، ثم أخذ يترجم لأصناف المشاهير من الرجال ممن نبغ فيها أو ورد عليها من غير أهلها ، مع ذكر أخبارهم ومشهور آثارهم ومؤلفاتهم .

وقد رتب الخطيب الأعلام المترجمة على نسق حروف المعجم ، مراعيًا أول أسمائهم لا الأسماء التي اشتهروا بها ، واختص المحمدين بالبداية تبركا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد ذلك جرى في ذكر الأسماء على ترتيب الحروف . وتصادف المطالع - من جراء هذا الترتيب بحسب الأسماء لا أسماء الشهرة - نفس الصعوبة التي نجدتها في كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان - كما سلف القول . وقد قيد الخطيب نفسه في مقدمة كتابه بذكر تاريخ وفيات المترجم لهم ، وألزم نفسه بقيده ، وكثيراً ما نراه يرجح بين روايتين في تاريخ الوفاة ، لاعتبارات يراها قريبة إلى الصواب ، أو لما يقوم عنده من المرجحات .

وقال: لقي « تاريخ بغداد » من الشهرة والقبول ما دعا العلماء إلى النسج على منواله فيما يتصل بالبلدان والعواصم الإسلامية الأخرى ، فجاء ابن عساكر المؤرخ والمحاث المشهور « توفي سنة ٥٧١ هـ » وكتب كتابه الضخم « تاريخ دمشق » ، وجرى على طريقة الخطيب البغدادي في الاتساع والإفاضة والشمول لتراجم الرجال الذين ولدوا بدمشق أو نزلوا بها ، ولم يترك - كما صنع الخطيب - عالماً أو راوياً أو محدثاً أو مفسراً أو مؤرخاً أو سياسياً أو أدبياً أو شاعراً أو صاحب قدر إلا ترجم له وذكر شيئاً كثيراً من أخباره وآثاره وأقواله . وقد جرى فيه على طريقة الإسناد كما صنع الخطيب البغدادي . والمؤرخان متأثران هنا بطريقة أهل الحديث والحفاظ . فقد كان كل منهما حافظاً من أكبر الحفاظ في عصره ، فالبغدادي محدث العراق وعاصمة العباسيين في وقته ، وابن عساكر محدث الشام في زمنه .

وقد صنع علماء الأمصار الإسلامية غير العربية ما صنعه البغدادي وابن عساكر في العاصمتين العربيتين الكبيرتين ، فرأينا الرجال يؤلفون في تواريخ

أذربيجان ، وإريل ، وأصبهان ، وجرجان ، وبخارى ، وبلخ ، وغيرها . ويحضرنا هنا - على سبيل الاستشهاد - كتاب « تاريخ جرجان » أو كتاب « معرفة علماء أهل جرجان » الذى ألفه حمزة بن يوسف السهمى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ . وقد قسم كتابه إلى أربعة عشر جزءاً ، وتحدث فيه عن فتح جرجان ومن دخلها من الصحابة والتابعين ، ولم يفته بالطبع أن يترجم ليزيد بن المهلب فاتح جرجان وأن يذكر نسبه وأولاده وبيته ، وبعد أن ذكر أسماء عمالها من الأمويين والعباسيين وسمى خطط المساجد فى عهدهم ، ابتداءً يترجم للرجال مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم ، ولم يراع إلا الحرف الأول فقط من الاسم . ومن هنا ترجم لأحمد قبل الترجمة لإبراهيم ، ولو أنه راعى ترتيب الحروف التالية للأول لترجم لإبراهيم قبل أحمد ، لأن الباء تقع قبل الحاء ، وألحق بالكتاب باباً لتراجم المشهورين بكنائهم ، ثم تراجم النساء . ولما كان السهمى محدثاً كبيراً فقد اتبع طريقة المحدثين فى الإسناد ، فيقول مثلاً : حدثنا فلان عن فلان عن فلان ، حتى يصل إلى الراوى الأول للخبر (١) .

ولم يفث مؤرخى الأندلس أن يترجموا لعلماء البليمان والمدن الأندلسية حين يؤلفون فى تواريخ البلاد . فهناك كتب كثيرة ألفت فى رجال الجزيرة الخضراء بالأندلس وألبيرة وقرطبة وقرنطبة وغيرها ، ويحضرنا الآن كتاب « الإحاطة » (٢) ، فى أخبار قرنطبة » للوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

وقد كتب ابن الخطيب مقدمة لكتابه الواسع ذكر فيها الباعث له على تأليف الكتاب ، وهو باعث يرجع إلى « العصبية الإقليمية » كما صرح بذلك فى قوله : « فداخلتنى عصبية لا تقدر فى دين ولا منصب ، وحمية لا يذم فى مثلها متعصب » وألحق أن ابن الخطيب قد كشف فى مقدمة كتابه عن روح وطنية قومية عالية دفعته دفعاً إلى تأليف هذا الكتاب ، وكان غرامه بالأندلس عامة

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة فى حيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٩٥٠ م

وبوطنه غرناطة خاصة سبباً في إنجاز هذا المؤلف الواسع . ويصرح ابن الخطيب في موضع آخر من المقدمة بوطنيته فيقول : « فلست ببدع ممن فتن بحب وطن ، ولا بأول من شاقه منزل فألقى بالعطن ، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه ، وطرفه مغرى بإتمام محاسنه » .

ولعل ما صرح به ابن الخطيب هنا يعبر أصدق تعبير عن اللوابع الحقيقية التي دفعت مؤرخي تراجم البلدان إلى كتابة مؤلفاتهم ، فالبغدادى يتعصب لبغداد ووطنه ، وابن عساكر اللدمشقى يتعصب للدمشق ووطنه ، والأزرقى المتوفى سنة ٢٢٣ هـ يتعصب لمكة ولو أنه يمني ، لأنه جاء مكة فعاش بها وتوفى فيها ، وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ يتعصب لوطنه أصبهان فيكتب كتابه « تاريخ أصبهان » في تراجم أعيانها وعلمائها

ولسنا الآن بسبيل إحصاء كتب تواريخ البلدان وتراجم رجالها ، فهى مذكورة في كتب التاريخ الأدبي ، وفي « كشف الظنون » لحاجي خليفة ، وفي « الإعلان بالتوبيخ » للسخاوى . وفي مقامة ابن الخطيب للإحاطة طائفة كبيرة من أسماء هذه الكتب ، ذكرها - مع كثرتها - على سبيل المثال لكتابه الذى لم يكن بدعاً منها ، ولا خارجاً عنها .

ولم يجر ابن الخطيب في « الإحاطة » على طريقة الإسناد التى اتبعها ابن عساكر والخطيب البغدادى في تاريخيهما للدمشق وبغداد ، ولكنه ينقل بعض النصوص من كتب الذين سبقوه ، كما ينقل بعض النصوص من كتبه هو الأخرى ، وله في الترجمة للرجال طريقة طريفة . فهو يذكر حال المترجم له ، وأوليته - يعنى أصوله - ومشىخته ، وتلاميذه ، وتصانيفه ، ومولده ، ووفاته .

وجرى صاحب « الإحاطة » في ترتيب الأعلام على الحروف المبوبة المرتبة ، ولكنه بدأ بأحمد قبل إبراهيم ، لأنه راعى الحرف الأول فقط من الاسم . ولكنه راعى في ترتيب طبقات التراجم ذكر الملوك أولاً ، ويليهم الأمراء ، ثم الأعيان

والكبراء ، ثم القضاة فالمقرئون والعلماء ، ثم الكتاب والشعراء ، واستمر في طوائف الرجال حتى نخم بالصوفية الفقراء « ليكون الابتداء بالملك ، والاختتام بالمسك » .

وابن الخطيب دقيق في الترجمة ، يعطى الصورة الحسية للمترجم له دقيقة كالصورة الأدبية المعنوية ، ولا يجعل المعاني أسيرة اللفظ والتعبير والتزويق والتنميق ، والسجع والتكلف ، والقسر والتعسف ، كما صنع ابن خاقان مثلاً في « قلائد العقيان » . ولكن مواتاة الأفكار له تأتية في لفظ بليغ ، وأسلوب جميل يسجع فيه أحياناً ، ويترسل فيه كثيراً ، كقوله في ترجمة السلطان محمد بن يوسف ابن إسماعيل من ملوك دولة بني الأحمر في غرناطة : « هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة ، وأسعدهم ميلاداً وولاية ، قد جمع الله له بين حسن الصورة ، واستقامة البنية ، واعتدال الخلق ، وصحة الفكر ، وثقوب الذهن ، ونفوذ الإدراك ، ولطافة المسائل ، وحسن التأتى ، وجمع له من الظرف ما لم يجمع لغيره ، إلى الحلم والأناة اللذين يجهما الله ، وسلامة الصدر التي هي من علامة الإيمان ، ورقة الحاشية ، وسرعة العبرة ، والتبريز في ميدان الطهارة والعفة ، إلى ضخامة التنجد ، واستحداث الآلة ، والكلف بالجهاد ، وثبات القدم ، وقوة الجأش ، ومشهور البسالة ، وإيثار الرفق ، ونجح المحاولة » .

ويحضرنا الآن مثال للموازنة بين أسلوب ابن خاقان وابن الخطيب في الترجمة لرجل واحد ، هو المعتمد بن عباد ، فابن خاقان يقول : « كان المعتمد على الله ملكاً قمع العدا ، وجمع بين البأس والندى ، وطلع على الدنيا بدير هدى . لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه ، آونة يراعه وآونة سنانه . وكانت أيامه مواسم ، وثغور بره بواسم . . . » وابن الخطيب يقول فيه : « كان رحمه الله فارساً شجاعاً ، بطلا مقداماً ، شاعراً ماضياً ، مشكور السيرة في رعيته » .

ولن ندع « الإحاطة » هنا من غير إشارة إلى كتاب آخر في تراجم رجال

الأندلس بحسب البلدان ، وهو كتاب « المغرب في حلى المغرب » (١) الذى صنفه بالموارثة فى أكثر من مائة سنة ستة من علماء الأندلس ، منهم الحجاجى وابن سماعيل « على بن موسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ » . والكتاب مقسم حسب كور الأندلس المقسمة إليها بلادها ، فيبدأ بكرسى المملوكة وقاعدة الولاية ، ويتحدث عن بنائها وتاريخها وما يحف بها من نهر أو يحتضنها من روض ، أو يميزها من خاصة معدنية أو نباتية ، ثم يأخذ فى الترجمة لرجالها طبقة بعد طبقة ، وهى طبقة الأمراء ، والرؤساء ، والعلماء ، والشعراء ، واللفيف . ويدخل فى طبقة اللفيف من ليس له نظم من أى صنف كان .

وقد استفاد ابن سماعيل مؤلف « المغرب » من كتب الذين سبقوه إلى التأليف فى هذا الباب ، كابن حيان ، وابن بشكوال ، والحميدى ، وابن القرضى ، وابن بسام ، وابن خاقان وغيرهم ، وكثيراً ما يروى عن والده موسى بن سماعيل فيقول : أخبرنى والدى ، أو يقول : وجدت بخط والدى .

(١) أخرجته « دار المعارف بمصر » فى جزئين كبيرين بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، وقد خدمه بالفهارس النافعة المفيدة .

افصل الرابع

حول كتابة التراجم

تراجم النساء - التراجم بين الطول والإيجاز - التراجم بين الإنصاف والتحليل -
التحقيق في كتب التراجم - العناية بتواريخ الميلاد والوفاة - مصادر التراجم -
ترتيب الأعلام المترجمة - ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب - تلخيص كتب
التراجم وتذييلها - المعاصرة وأثرها في كتابة التراجم .

تراجم النساء

لم يسقط مؤرخو التراجم ومؤلفوها في الإسلام المرأة العربية المسلمة من حسابهم ، وفي ذلك من تقدير النظرة الإسلامية للمرأة وإنزالها منزلتها ما ينبغي الإشارة إليه في بحث خاص . والحق أن مؤلفي التراجم عندما قد أنصفوا المرأة حين وضعوها في قوائم أعمالهم ، فأفردوا بعض النساء بالترجمة في كتب خاصة ، أو ترجموا هن مع الرجال على السواء في كتب التراجم عامة ، فهذا أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وصاحب كتاب « بغداد » المشهور يؤلف كتاباً في « بلاغات النساء وطرائف كلامهن ، وملح نوادرهن ، وأخبار ذوات الرأي منهن ، وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام » وهو الكتاب الذي طبعت قطعة منه في العشر الأوائل من هذا القرن بعنوان « المنشور والمنظوم » . وهذا أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى المتوفى^(١) سنة ٥٥٧ هـ يذكر حاجي خليفة

المؤرخ أن له كتاباً في « تاريخ النساء » ، وإن كان ابن خلكان لم يذكر له هذا الكتاب في ثبوت مصنفاته . ويذكر السخاوي المؤرخ أن لابن عساكر كتاباً اسمه « معجم النسوان » ، على أن لثاج الدين علي بن أنجب البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ كتاباً في « تاريخ نساء الخلفاء ، من الحرائر والإماء » .

وفي عصرنا هذا ظهر كتابان خاصان بأعلام النساء وطبقاتهن وتراجمهن ، أما الكتاب الأول فهو « الدر المنثور » ، في طبقات ربوات الخلدور « للأدبية الكاتبة زينب فواز السورية مولداً وموطناً ، المصرية نشأة وسكناً المتوفاة ١٩١٤ م وقد ترجمت في كتابها لشهيرات النساء في القديم والحديث من العرب وغيرهن ، فتجد فيه ترجمة ماجدة القرشية بجوار ترجمة ماريّا تريزا النمسية ، وترجمة مريم الهاشمية بجوار ترجمة مارجريت ملكة إنجلترة . والأعلام في هذا الكتاب الثمين مرتبة حسب حروف المعجم ، فتبدأ بآمنة بنت وهب أم النبي عليه السلام ، وتنتهي بعد ولادة بنت المستكفي في حرف الواو بمن تبدأ أسماءهن بحرف « اللام ألف » . أما الكتاب الثاني فهو « أعلام النساء ، في عالمي العرب والإسلام » للأستاذ عمر رضا كحالة الأديب السوري المعاصر ، وقد رتبته على حروف المعجم ترتيباً يسهل المراجعة إلى حد كبير ، وراعى الترتيب في الاسم الأول والثاني وهكذا . وهو — على إيجاز التراجم فيه — يعد مرجعاً هاماً للباحثين في تاريخ المرأة العربية المسلمة ، لأنه يختم كل ترجمة بذكر المراجع التي وردت فيها سواء أكانت مراجع قديمة أم حديثة .

ويظهر الفرق واضحاً بين هذا الكتاب وكتاب « الدر المنثور » الذي جمع بين نساء العالم كله قديماً وحديثاً ، على حين اختص هذا بنساء العرب والإسلام ، كما اختص بذكر مراجع كل ترجمة حتى يسهل الرجوع إليها في مظانها .

(١) في « كشف الظنون » أنه توفي سنة ٥٠٧ هـ . وهو تحريف مطبعي .

وقد تنبّهت المرأة العربية أخيراً إلى واجبها نحو الترجمة والسيرة لبنات جنسها ، لعل مشاكلة الجنس بين المؤلفّة والمترجم لها تكون أدعى إلى فهم النفسية، وتحليل الشخصية ؛ وتقدير المزايا التي قد تكون المرأة أعلم بها في أختها . ولن نذكر هنا أكثر من التمثيل بما كتبه الآنسة مى في حياة باحثة البادية ، وبما كتبه الدكتور بنت الشاطىء في حياة « بطلة كربلاء » و « آمنة بنت وهب » و « نساء النبي » ، وبما كتبه الأديبة وداد سكاكينى في حياة « أمهات المؤمنين » و « رابعة العدوية » المتصوفة العاشقة .

أما مكان المرأة العربية المسلمة في كتب الطبقات والتراجم فهو مكان لا تكاد يخاو منه كتاب عام . ففي « معجم الأدباء » لياقوت الرومى تراجم للنساء ولو أنهن قليلات ، وفي « وفيات الأعيان » تراجم كذلك للنساء من أمثال السيدة سكينية ورابعة العدوية وأم المؤيد وغيرهن ، وفي « الوافى بالوفيات » تراجم لبعض النساء، منهن السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وفضل الجارية ، وفي « صفة الصفوة » لابن الجوزى المؤرخ تراجم كثيرة للنساء المتعبدات الناسكات ، وفي « الدرر الكامنة » لابن حجر تراجم في شهرات القرن الثامن ، وفي عشرات وعشرات من كتب التراجم والطبقات نرى اسم المرأة العربية المسلمة بارزاً أخذاً بنصيبه كالرجل سواء بسواء .

ومن الحق أن نشير هنا - في مقام التنويه بالفضل - إلى ما صنعه مؤرخ السيرة والمغازى المشهور ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وصاحب كتاب « طبقات ابن سعد » في الاهتمام بالمرأة وإعطائها قدراً من عنايته ، وإنصافه إياها حين ترجم للنساء الصحابييات في طبقاته . فقد نبه بهذا العمل الجليل من جاء بعده من المؤرخين وكتاب الطبقات والتراجم إلى إنصاف المرأة العربية المسلمة، في معرض يجب فيه الإنصاف ، بلا خلاف . . .

التراجم بين الطول والإيجاز

قد تطول التراجم أو تقصر ، وقد تفيض أو تغيض تبعاً لاعتبارات كثيرة يرجع بعضها إلى كاتب الترجمة أو السيرة ، وبعضها إلى المترجم لهم . ولا شك أن طائفة المعارف والمعلومات والحقائق التي تتصل بالمترجم له تعين كثيراً على الإطالة في الترجمة له ، وعلى فسح مجال القول فيه ، فهنا يجد كاتب الترجمة فيضاً واسعاً من المادة التي تطول معها الترجمة .

ولقد أتاحت بعض الشخصيات الإسلامية الهامة الغنية لكتاب التراجم أن يطيلوا في تراجمهم تبعاً لأهميتهم وغزارة المادة فيهم . فالشاعر أبو العلاء المعري قد أتاح للمؤرخ ياقوت الرومي أن يترجم له في أكثر من مائة وعشر صفحات ، وكذلك كانت حياة أسامة بن منقذ الأمير الفارس العربي المجاهد مادة خصبة لياقوت ، فكتب في ترجمته ستين صفحة من كتابه « معجم الأدباء » ، على حين أنه ترجم لبعض الرجال في أربعة أسطر ، ولقد بلغ الصاحب بن عباد القمة عند ياقوت حين ترجم له في مائة وخمسين صفحة ، وهو قاهر أعان عليه ما دار حول الرجل من ضجة ، وما أثاره في حياته من خصوصيات ومنازعات ، وما كان في شخصيته من مناقضات حملت كاتباً كبيراً كأبي حيان التوحيدي على أن يصور غروره تصويراً كان فيه من التحامل أكثر مما فيه من النصفية لأديب من كبار أدباء العربية .

على أن كاتب الترجمة — من ناحية أخرى — قد يطيل فيها مراعاة لجانب المترجم له إذا كان حياً معاصراً ، وقد يكون لاعتبار النفوذ ، ورعاية الزلفي ، وقصد التقرب دخل كبير في مقدار الترجمة والسيرة ، بل قد يصل أحياناً إلى مراعاة المجاملة والتحيز .

ولا نستطيع أن نصف كاتباً كبيراً كلسان الدين بن الخطيب المؤرخ

الأندلسى بالتحيز حين ترجم للسلطان محمد يوسف بن إسماعيل ملك غرناطة وأمير المسلمين لعهد ابن الخطيب في الأندلس في القرن الثامن الهجرى . ولكنه بلا شك قد جامل سلطانه وماكده حين ترجم له في « الإحاطة » في قرابة ستين صفحة ، وجامله أكثر حين أفاض عليه من بالغ الأوصاف وبلغها ما تتضاءل معه الصفات ، كقوله فيه : « اشهر شهرة ذكاء في الضحى ، مستولياً على الملدى ، بالغاً بالانتساب إلى سعد بن عبادة عنان السما ، وكفى بذلك فخرأً عند من سمع ورأى . » .

والحق أن لسان الدين بن الخطيب كان من صنائع ملوك بنى الأحمر في غرناطة ، بل كان وزيراً للسلطان محمد كما كان وزيراً لأبيه من قبل ، فلا غرابة إذا بالغ في الصفة ، وأغرق في المدح حين يترجم ويؤرخ ، إلا أنه كان مبالغاً دائماً في الترجمة لمعاصريه وللسابقين على حمد سواء ، وذلك ملحوظ في تراجمه في « الإحاطة » .

ولقد نبه المؤرخ السخاوى في كتابه « الإعلان بالتوبيخ ، لمن ذم التاريخ » إلى ضرورة التعبير في الترجمة للرجال « بعبارة لا تزيد عنه ولا تنقص » ، كما اشترط في كتاب الترجمة أو السيرة : « أن لا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، وذلك بأن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك معه طريق الإنصاف ، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز . » .

التراجم بين الإنصاف والتحامل

ولا شك أن كلام المؤرخ السخاوى في الإنصاف والتجرد عن الهوى جميل وواجب أن يكون نصب عيني مؤرخي السير والتراجم حين يكتبون ، فإن الحقيقة العلمية تضع متى تحيز المؤرخ أو تحامل أو جامل . ومن الصعب على المترجم

المنصف النزيه أن يجرد نفسه تماماً من عوامل التحيز ، والتجرد ، والهوى ، وهي آفة المرء دائماً فيما يأتي أو يدع . ولعل السخاوى نفسه لم يأخذ نفسه بالإنصاف الذى دعا إليه حين ألف كتابه الشهير « الضوء اللامع » ، فى أعيان القرن التاسع » ، فقد دفعته عوامل المعاصرة وما يدور حولها من المنافسة والحسد بين الرجال إلى أن يتحامل على كثير من علماء عصره حين ترجم لهم ، ولم يكن منصفاً لهم ، ولا مالكاً زمام هواه حين وقع فيهم بما يستغرب صدورهم من مؤرخ مثله ، وضع للمؤرخين مناهج وقواعد فى كتابه القيم « الإعلان بالتوبيخ » ، لمن ذم التاريخ . فقد كانت بينه وبين الإمام السيوطى المؤرخ الكبير المعاصر له جفوة ، وحدث بينهما ما يحدث بين أبناء الصنعة الواحدة ، فنسى السخاوى مذهبه فى الإنصاف والتجرد وقهر الهوى ، وأطال لسانه فى السيوطى وهو يترجم له فى الجزء الرابع من « الضوء اللامع » ، ورماه بالكذب على الشيوخ ، واختلاس المؤلفات ، وضعف الكفاية فى التدريس ، وغمزه كثيراً ، بلى تعرض لبعض خصوصياته كقوله فيه : « ولم أزل أعرفه بالهوس ، ومزيد الترفع حتى على أمه ، بحيث كانت تزيد فى التشكى منه . »

ولو أن السخاوى المؤرخ المترجم للرجال بعد عن التحامل على رجال عصره لكان مثالا لكتاب التراجم على النحو الذى اقترحه هو فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » ، إلا أن هناك عاملاً نفسياً لا يجدر إغفاله هنا ، فقد كان السخاوى شديد التحامل حين يترجم لرجال التاريخ من أهل عصره ، ولعله كان يريد أن يتفرد وحده بأنه هو مؤرخ زمانه ، فحاول النيل من كل مؤرخ ظهر فى عصره ، أو التنقص من قدره ، ولعل غمزاته فى معاصره المقرئى المؤرخ تفسر لنا هذه الناحية ، فقد اتهمه بأنه سرق كتابه المشهور فى مخطوط مصر والقاهرة من مسودة للمؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدى « كان قد تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها ، فبيضا التقي المقرئى ونسبها لنفسه مع زيادات » ، ثم غمزه مرة أخرى بقوله : « وصارت له فيه - يعنى التاريخ - جملة تصانيف كالخطوط للقاهرة ،

وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدي كما سبق في ترجمته ، فأخذها وزادها زوائد غير طائفة » ، ثم زاد في التحامل فنسب إليه الكذب في بعض أخباره .
 على أن رأى المؤرخ ابن حجر - شيخ المؤرخ السخاوي - في خطط المقریزی يخالف رأى تلميذه ، فقد عرف الشيخ بالإنصاف والتجرد من الهوى ، ولهذا لم يتعرض للحكاية سطو المقریزی على الأوحدي في كتابه « الخطط » وهو يترجم للمقریزی في معجمه ، بل قال فيه : « له النظم الفائق ، والنثر الرائق ، والتصانيف الباهرة ، وخصوصاً في تاريخ القاهرة ، فإنه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد ما أثرها ، وترجم أعيانها » .

والسخاوي يخطب في قصة سطو المقریزی على الأوحدي ، فتارة يعزو الرواية إلى شيخه ابن حجر ، وتارة يذكرها كأنها من عنده هو . وقد رأيت رأى ابن حجر في المقریزی ، فلم يبق إلا أن نستظهر من هذا الخطب تحامل السخاوي الذي يظهر لنا أيضاً في تراجمه للمؤرخين من أهل عصره : ابن تغرى بردى ، والبقاعي ، وحتى ابن خلدون الذي لم يسلم من لومه والتعريض به .

وما أبشع التحامل بين المؤرخين وكتاب السير والتراجم حين يختلط فيه الأمر على القارئ الذي يبغى الوصول إلى الحقيقة ، فقد يكون المترجمون على التقيضين حين يترجمون لرجل واحد ، ويحضرنا الآن مثال من ذلك ، فعبداً الرحمن ابن علي التفهني القاهري كان من علماء مصر في المائة التاسعة . ولكن آراء المؤرخين فيه تختلف باختلاف التجرد أو الهوى والمصلحة والعوامل النفسية . فالمؤرخ ابن حجر يقول عنه : « وكان حسن العشرة ، كثير العصبية لأصحابه ، عارفاً بأمور الدنيا وبمخالطة أهلها » ثم قال عنه مرة أخرى : « وكان حسن الأخلاق ، كثير الاحتمال ، شديد السطوة ، إذا غضب لا يطاق ، وإذا رضى لا يكاد يوجد له نظير » ثم قال عنه في كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » وهو في تراجم القضاة بمصر : « إنه سار في القضاء سيرة محمودة ، وخالق الناس بخلق حسن ، مع

الصيانة والإفضال ، والشهامة ، والإكباب على العلم » .
 ولكن اسمع ما يقوله فيه المؤرخ العيني بدر الدين المتوفى سنة ٨٥٥ هـ وهو
 معاصره : « كان أبوه عامياً من الزراع في تفهنة والمتسبين بها ، فهرب ابنه منه
 بعد بلوغه إلى القاهرة ، وخدم بها حمّاراً . . . وحصل له بعض تمييز بين الناس
 فتاب في القضاء ، واتصل ببعض الأمراء ، فتمول ، فبطر وطغى ، فسعى في
 قضاء الحنفية بالرشى والبرطيل . . . وكان صاحب غرض فاسد ، يبذل أشياء
 لأغراضه الفاسدة . . . ولم يعهد أنه درس كتاباً كاملاً ولا كتب بيده كتاباً كاملاً ،
 ولا تأليفاً ولا جمعاً . . . وكان في الدعوى كثير الهديانات والفشارات . . . »

وإذا رجعنا إلى التاريخ نستخبره سر تحامل المؤرخ العيني على التفهني
 أفادنا أن الاثنين كانت بينهما منافسة في الصنعة والمشیخة ، وكان التفهني
 محظوظاً عند أمراء مصر ، وخاصة بعد أن تزوج ابنة الشهاب الحلبي كبير تجار مصر ،
 فعظم بين الناس قدره ، ولما تولى مشيخة المؤيدية سعى عليه المؤرخ العيني حتى
 صرف به عنه . وكان هو والعيني يتعاوران القضاء والمشیخة تبعاً لنفوذهما عند أولى
 الأمر . فحملت المنافسة والمنصب على أن يكون رأي العيني في صاحبه كما رأينا .

التحقيق في كتاب التراجم

إن التحقيق ، ومعارضة الروايات بعضها بعض ، وتحري الحقيقة هي من
 شروط المترجمين وكتاب السير ، كما هي من شروط المؤرخين ، فالتأريخ لحياة
 الأفراد والجماعات لا يعملو أن يكون نوعاً من التاريخ العام . ويحضرنا من كتاب
 التراجم مثال رائع يتجلى في ياقوت الحموي صاحب « معجم الأدباء » الذي كان
 يحقق المسائل ويبلى فيها بالرأي الحسن ، ولا يجزم في مسألة بما لم ينته إليه يقينه ،
 وهنا يستعمل : أظن وأحسب وما شابهها من صيغ الظن . فإذا كان واثقاً من مسألة
 قال : والذي أعلمه ، والذي أعرفه ، وما مثلها من صيغ اليقين . فيقول في ترجمة

الهروى : (« المؤدب صاحب كتاب « غريب القرآن والحديث » ، والسابق إلى الجمع بينهما في علمنا » ويقول في ترجمة إبراهيم الحصري القيرواني : « والذي أعرفه أنا من تصانيفه كتاب « زهر الآداب » .

ومن تحقيقي ياقوت الرومي ما ذكره في ترجمته لإبراهيم بن ممشاذ المتوكلي ، فهناك روايتان : إحداهما أنه تسخط صحبة أولاد الخليفة العباسي المتوكل ، فتركهم ولحق ببيعقوب بن الليث الصفار الخارج على الدولة العباسية في منتصف القرن الثالث . والرواية الأخرى تقول : إن المعتمد الخليفة العباسي نفسه وابن المتوكل هو الذي أنفذه رسولا عنه وعن الموفق إلى يعقوب بن الليث ، فنحن هنا أمام روايتين تقول إحداهما إن المترجم له ترك الخليفة سائخاً ، وتقول الثانية إنه تركه رسولا منفذاً من قبله ، وهنا لا يسكت ياقوت المؤرخ الحق ، ولا يكتفى بذكر الروايتين كما يصنع كثير من المؤرخين والمترجمين ، ولكنه يعاق قائلًا : « والأولى من هاتين الروايتين أصح في أنه هو الذي لحق ببيعقوب ، يدل على ذلك أنه كتب من عند يعقوب إلى المعتمد :

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائز إرث ملوك العجم
فقل لبني هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم !

* * *

وقد تظل بعض المسائل دهرًا طويلًا كأنها حقيقة تاريخية ، إلى أن يجيء من يصححها ويبين الخطأ فيها بشاهد من التاريخ أو بدليل قوى من الواقع ، فقد زعم سهيل بن ذكوان أنه روى عن السيدة عائشة رضی الله عنها ، وأنه لقيها بمدينة واسط ، مع أن السيدة عائشة ماتت سنة ٥٨ هـ والحجاج بنى مدينة واسط بعد ذلك بدهر . فكيف يلتقي بها في مدينة كانت حين وفاة عائشة لا تزال سرا في ضمير الغيب ؟ . ولقد صحح السخاوي هذا الزعم ، ولعله نقله عن بعض شيوخه وخاصة المؤرخ المحدث الحافظ ابن حجر .

وقد يجمع مؤرخو السير والتراجم على رأى معين فى مسألة معينة ، وينقلها بعضهم عن بعض إلى أن يظهر من الدلائل أو الوثائق ما يصحح الرأى فيها . فقد أجمع مترجمو حياة الشاعر الإنجليزى شيللى « ١٨٢٢ م » - وفيهم أنلريه موروا أحدث المترجمين له - على أن زوجته الأولى هاربيت وستبروك كانت موضع شكوك من ناحية السلوك - إلى أن عشر بأخرة من الزمان فى أول العقد الثالث من القرن العشرين على رسائل من الشاعر شيللى إلى زوجته هاربيت ، تثبت براءتها مما وقع فيه المؤرخون .

العناية بتواريخ الميلاد والوفاة

يبدو اهتمام كتاب التراجم ومؤرخى المسلمين بالوفيات أكثر من المواليد ، من هذا العدد الكثير من الكتب التى ألفت على الوفاة وضبطها وتحقيقتها . ويكنى أن يهتم ابن خلكان المؤرخ بمسألة وفيات الرجال فيجعل عنوان كتابه الجليل « وفيات الأعيان » ، وهو يوحى بهذا العنوان إلى الغرض الأهم من كتابه ، وهو حفظ الوفيات حتى لا تضيع على الزمان .

وقد حاول ابن خلكان قدر جهده أن يؤرخ لميلاد المترجم لهم ، واشترط ذلك بالقدرة عليه ، فإن الميلاد أصعب ضبطاً وأعسر تقييداً من الوفاة . لأن الشخص حين يولد لا يعلم ماذا يكون من شأنه ولأما يصير إليه مستقبل أمره ، فلا تقوم هناك حاجة إلى حفظ تاريخ مولده ، فإذا مات تكون شهرته أو مكانته أو عامه أو أدبه دالا عليه ومنهياً إليه ، فيحفظ المؤرخون تاريخ وفاته .

ولقد حفظ لنا ابن خلكان كثيراً من موالد الأعيان المترجم لهم ، وقد يؤرخ الميلاد باليوم من الأسبوع والتاريخ من الشهر والسنة ، فإذا عجز عن ذلك أرخ الميلاد بحادثة أو خلافة ، كما فعل فى ترجمته لأبى بكر بن عبد الرحمن بن مخزوم

القرشي أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، فإنه ذكر أنه ولد في خلافة عمر بن الخطاب. وقد لفت إهمال المؤرخين وكتاب التراجم للوفيات نظر المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي « ٧٤٨ هـ » فقال في مقدمة كتابه « تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام » : « ولم يعين القدماء بضبط الوفيات كما ينبغي ، بل اتكولو على حفظهم ، فأنهبت وفيات خلق من الأعيان من الصحابة ومن تبعهم إلى قريب زمان أبي عبد الله الشافعي ، فكسبنا أسماءهم على الطبقات تقريباً ، ثم اعتنى المتأخرون بضبط وفيات العلماء وغيرهم ، حتى ضبطوا جماعة فيهم جهالة بالنسبة إلى معرفتنا لهم ، فلهذا حفظت وفيات خلق من المجهولين ، وجهلت وفيات أئمة من المعروفين »

وعلى الرغم من تحقيق المؤرخين لوفيات الرجال فقد وقع في بعضها خلط واضطراب وروايات متعددة ، تحتاج في تحقيقها إلى كثير من الجهد والنظر ومعارضة الأصول ومقابلة الأحداث. فابن القاص الطبري الفقيه الشافعي قيل في وفاته إنه مات سنة ٣٣٥ هـ ، وقيل سنة ٣٣٦ هـ ، والتعليق المفسر المشهور تختلف الأقوال في وفاته بين سنة ٤٢٧ هـ ، و ٤٣٧ هـ ، وابن الراوندي عالم الكلام المشهور يقال إنه مات سنة ٢٤٥ هـ و سنة ٢٥٠ هـ ، وأحمد بن فارس الإمام اللغوي الكبير قيل إنه توفي سنة ٣٧٥ هـ وسنة ٣٩٠ هـ ، وأبو العتاهية الشاعر المشهور قيل إنه توفي سنة ٢١١ هـ وسنة ٢١٣ هـ ، وبشار بن برد تختلف وفاته بين ١٦٧ هـ ، ١٦٨ هـ ، وابن رشيقي القيرواني صاحب كتاب « العمدة ، في صناعة الشعر ونقده » تختلف الأقوال في وفاته بين ٤٥٦ هـ ، ٤٦٣ هـ .

ولا يقف المؤرخ أو كاتب الترجمة صامتاً أمام هذا الاختلاف في سني الوفاة للمترجم لهم ، بل لا بد أن يحققها قدر جهده وعلمه ، ولا بد أن يبدي فيها رأياً . وقد لا يكون الرأي مستنداً إلى دليل أكثر من ثقة المترجم في صاحب القول الذي أخذ به . كما صنع ابن خلكان في تاريخ وفاة ابن رشيقي ، فإنه آثر

رواية من قال إنه توفي ٤٦٣ هـ ، وقال عنها إنها أصح من الرواية الثانية التي وجدتها بخط بعض الفضلاء .

إلا أن الترجيح بالاوليل المادى يكون أحسن وأليق بعمل المترجم المحقق . فقد أرخ جماعة وفاة مجمع بن يعقوب بن مجمع بن زيا بن جارية الأنصارى بأنها كانت سنة ١٦٠ هـ ، فلم يقبل الذهبي المؤرخ هذا وتوقف فيه ، لأن قتيبة كان ممن روى عن مجمع ، وكانت رحلته إليه بعد سنة ١٧٠ هـ ، فلا بد أن تكون وفاة مجمع بعد هذا التاريخ . ولكن لا بد لإتمام التحقيق من خطوة أخرى ، وهي تحقيق رحلة قتيبة ، والتأكد تاريخياً من أنها كانت بعد عام سنة ١٧٠ هـ .

مصادر الترجمة

يرجع كتاب التراجم والسير إلى مصادر ومراجع يأخذون منها مجموعة المعارف والمعلومات التي يثبتونها في تاريخ المترجم لهم . وقد تبنى هذه المعارف على الاتصال الشخصي بالمترجم له ، كما في ترجمة بهاء الدين بن شداد المؤرخ « ٦٣٢ هـ » لصالح الدين الأيوبي حينما كتب سيرته « النوادر السلطانية ، والحاسن اليوسفية ، وترجمة أبي النصر العتبي المؤرخ « ٤٢٧ هـ » لسلطان محمود الغزنوي في كتابه المعروف باسم « اليميني » ، وكما في ترجمة لسان الدين بن الخطيب لسلطان محمد ابن يوسف ملك غرناطة ، وكان ابن الخطيب وزيراً له ولوالده من قبله .

وقد يستمد كاتب التراجم معارفه عن طريق السماع ، كما جرى عايمه الشأن في كثير من كتب التراجم ، فيتملى المؤلف أخباره سامعاً من هذا ، وناقلاً عن ذلك ، كما صنع ابن خالكان حين نقل عن أفواه الأئمة المعاصرين له ، وكما صنع من قبل أبو عبد الله الحشنى المتوفى سنة ٣٦١ هـ حين ترجم للقضاة الأندلسيين في كتابه المشهور « قضاة قرطبة » ، فهو يقص أخبار المترجم له قائلًا : « وسمعت بعض أهل العلم يحكى » أو قائلًا : « حكى لى عنه بعض إنخوانى » ، أو

كما صنع ابن سريته المغربي حين يسمع من كثير من الناس وفيهم والده المؤرخ الأديب ، فيقول : أخبرني والدي ، أو قال والدي ، أو غير ذلك من العبارات . أما ذكر الأخبار عن طريق الإسناد فكان سبيل كتاب الطبقات والسير والتراجم زمناً طويلاً ، نجد ذلك في « طبقات ابن سعد » المتوفى سنة ٢٣٠ هـ لأنه كان من أوائل الذين ألفوا في السير والمغازي والرجال ، فجرى في الإسناد على طريقة أهل الحديث ، ونجد ذلك في كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، ونجده في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، ونجده في كتاب « المنتظم » لابن الجوزي ، وفي « تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » للأهبي « ٧٤٨ هـ » وغيرها مما لا سبيل إلى حصره . ولكن المؤرخ ابن خلكان لم يجرف في « وفيات الأعيان » على طريقة الإسناد هذه ، لأن صفة أهل الحديث وطريقتهم لم تغلب عليه كما غلبت على الطبري المؤرخ ، الذي ازدحم كتابه بأسماء رجال السند إلى حد يكاد يضل معه الباحث .

بقي من مصادر الترجمة أن نشير إلى مصادر يعول عليه كثيراً في تقويد العلوم والأخبار والآثار والمعارف البشرية عامة ، وهو مصدر الكتب التي ألقت في الموضوع الذي يكتب فيه المصنف ، فترجم طبقات المحدثين والرواة محتاج إلى أن يطلع على كل ما كتب قبله في هذا الباب ، حتى لا يفوته شيء مما كتبه الأوائل . وبديهي أن أوائل المؤلفين في الإسلام اعتمدوا على الروايات لا غير ، لأن العلم لم يكن مدوناً حينذاك ، وإنما كان محفوظاً في الصدور ينقله راو عن راو . وأخذت الحاجة إلى الاستعانة بالكتب مراجع ومصادر تزداد وتتسع تبعاً لتقدم الزمن وكثرة المصنفات في الموضوع الواحد . وصار كتاب التراجم والسير - كغيرهم من المؤلفين - لا يجاون حرجاً في أن يشير إلى مصادرهم في مقدمات كتبهم أو في أي موضع آخر من الكتاب . والغالب أن مصادر الترجمة كانت تذكر في المقدمة ، ولكن ابن خلكان لم يذكّر لنا في مقدماته « وفيات الأعيان »

أسماء الكتب التي أخذ عنها ، واستقى منها ، وإنما اكتفى أن يقول : « فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده في كتاب » .

أما ياقوت الحموي « ٦٢٦ هـ » فقد اعتنى بذكر مصادره في مقدمة كتابه « معجم الأدباء » ، كما ذكر طائفة من كتب التراجم وطبقات النحاة لم تقع له . وهو يصرح عنده كل كتاب أفاد منه ورجع إليه بأنه « نقل فوائده إلى كتابه » ، ولم يكتف ياقوت بذكر المراجع والمصادر ، بل وقف منها موقف الناقد الصيرفي ، يكشف عن أقدارها ، ويبين قيمتها ، فيقول عن كتاب « شجرة الذهب » في أخبار أهل الأدب « لعلي بن فضال المجاشعي : « وقع إلىّ منه شيء ، فوجدته كثير التراجم ، إلا أنه قليل الفائدة ، أكونه لا يعنى بالأخبار ، ولا يعنى بالوفيات والأعمار » ، ثم يقول عن كتاب « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدي « ٣٧٩ هـ » : « ثم جمع في ذلك أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي الزبيدي كتاباً لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائده ، وأكثرها تراجم وفرائده ، وقد نقلنا فوائده أيضاً إلى هذا الكتاب » .

ولقد صرح ابن حجر العسقلاني مؤرخ مصر في القرن التاسع بأسماء الكتب التي استمد منها كتابه « الدرر الكامنة » ، في أعيان المائة الثامنة » ، ومنها « أعيان النصر » للصفي ، و « مجاني العصر » لأبي حيان ، و « ذهبية العصر » لابن فضل الله العمري ، و « الخطط » للمقرئ ، و « الإحاطة » للوزير الأندلسي لسان الدين بن الخطيب ، و « تاريخ ابن خلدون » وغيرها . ومن هذه المراجع ما لا يزال مخطوطاً إلى اليوم .

ومن ذكروا مصادرهم في صلور كتبهم المؤرخ شمس الدين الذهبي ، فقد قال في المقدمة إنه طالع من الكتب على مؤلفه مصنفات كثيرة ، سرد منها

نحواً من أربعين كتاباً من أمهات كتب التاريخ والسير والطبقات ، وأكثرها مخطوط أو لا وجود له اليوم .

ولما رغب نجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠٦١ هـ فى كتابة تراجم لرجال المائة العاشرة لم يصادف أمامه إلا قلة من الكتب لا تنى بحاجة ولا تسد النقص ، وأغلبها لم يصل فى تاريخ رجال القرن العاشر إلا إلى نصفه ، فاعتمد على ما نقله من مخطوط المشايخ أو مخط من يوثق به من العلماء ، واستند إلى ما تلقاه من الأفواه ، وأخذ بالسماع حتى كملت له مادة كتابه « الكواكب السائرة ، بأعيان المائة العاشرة » .

ولقد عدل القفطى المؤرخ وصاحب التراجم « توفى سنة ٦٤٦ هـ » عن طريقة ذكر المصادر والمراجع فى مقدمة الكتاب إلى متن الكتاب نفسه ، وهى طريقة أخرى لتسجيل المصادر . فى خلال الترجمة لعالم لغوى أو أديب يقول مثلاً : « وقال الزبيدى » ، ثم يسوق النص الذى نقله عن كتاب طبقات النحويين للزبيدى ؛ أو يقول مثلاً : « وقال محمد بن إسحاق النديم فى كتابه » ويقصد كتاب « الفهرست لابن النديم » ؛ أو يقول : « وذكره أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى فى كتابه » ويقصد كتابه « المقتبس فى أخبار النحويين واللغويين » وقد جرت عادة كتاب التراجم والسير فى زماننا هذا أن يذكرها ثبناً خاصاً بأسماء المصادر والمراجع فى مفتتح الكتاب أو فى خاتمته ، فإذا ما عرض فى صلب الكتاب ذكر لحادثة تستحق الإشارة إلى مأخذها ذكره فى هامش الكتاب ، حتى تكون الحادثة أو الواقعة الصق بمظنتها ، وأقرب إلى مصدرها . على أن هناك بعض الآثار المادية والمخلفات التى قد تعين المترجم وكاتب السيرة على الترجمة أو على جلاء الشخصية التى يريد الكتابة عنها ، أو على تصحيح بعض الأفكار عنها . وتلعب « الرسائل الخاصة » دوراً كبيراً فى هذا ، كما فى

رسائل الأنسة مى زيادة التى نشرت فى بيروت سنة ١٩٥١ ، وهى تلتقى ضوءاً على بعض النواحي العاطفية من حياة تلك الأديبة العربية الكبيرة .

ترتيب الأعلام المترجمة

إذا استعرضنا كتب التراجم والطبقات فى الأدب العربى رأيناها لا تجرى فى ترتيب الأعلام على نهج واحد ، فكل مؤلف يختار الطريقة التى يجدها أوفى بالغرض ، وأسهل فى التناول ، وأدل على القصد بأدنى جهد .

وقد جرى أكثرهم على ترتيب الأعلام حسب حروف المعجم ، كما صنع ابن خاكان فى « الوفيات » ، وياقوت فى « معجم الأديباء » ، وابن حجر العسقلانى فى « الدرر الكامنة » و « الإصابة » ، والسخاوى فى « الضوء اللامع » ، ونجم الدين الغزى فى « الكواكب السائرة » ، والقنطلى فى « إنباه الرواة » .

ولكن الذين اتبعوا طريقة الترتيب المعجمى للأعلام لم يجرؤوا على خطوة واحدة أيضاً ، فبعضهم راعى الترتيب الهجائى عامة فى جميع الأعلام ، كما صنع ابن خاكان فى « الوفيات » وياقوت الرومى فى « معجم الأديباء » . وبعضهم بدأ بذكر أسماء المحمدين تيمناً بالاسم النبوى الكريم ، ثم راعى بعد ذلك الترتيب الهجائى . وبعضهم بدأ بالمحمدين أولاً ، فالأحمدين ثانياً ، ثم أتبع ذلك بذكر من اسمه إبراهيم ، وبعد ذلك جرى على ترتيب حروف المعجم .

ومن بدأ بالمحمدين الخطيب البغدادي صاحب كتاب « تاريخ بغداد » ، والسيوطى صاحب كتاب « بغية الوعاة ، فى طبقات النحاة » ، والنووى صاحب كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » ، والغزى صاحب « الكواكب السائرة » ، وصلاح الدين الصفهائى صاحب « الوافى بالوفيات » الذى طبعت منه إلى الآن ثلاثة أجزاء لا غير ، بعناية المستشرق : س ، ديدرغ .

وفى طريقة الترتيب بالأعلام حسب حروف المعجم صعوبة يصادفها

المترددون كثيراً على المراجع العربية ، فإن الأعلام المترجمة مرتبة بحسب الأسماء لا بحسب شهرة أصحابها أو كنانهم ، فلا بد لطالب الكشف عن ترجمة أن يكون عالماً بالاسم الأول للمترجم ، ولا تنفع معرفته بالمشهرة أو الكنية أو اللقب ، لأنها لم تدخل في حساب كتاب التراجم .

وهل يخطر على بال الباحث أو الطالب أن الشاعر « الشاب الظريف » يبحث عنه في مادة محمد لأن اسمه محمد بن سليمان ؟ وأن السيوطي المؤرخ يكشف عنه في حرف العين لأن اسمه عبد الرحمن بن أبي بكر ؟ وأن المقرئ المؤرخ المشهور يبحث عنه في حرف الهمزة لأن اسمه أحمد بن علي ؟ وأن أبا نعيم الأصفهاني صاحب « حلية الأولياء » يبحث عنه في مادة أحمد ؟ وأن الإمام الشافعي رضي الله عنه يبحث عنه في حرف الميم لأن اسمه محمد بن إدريس ؟ وأن « القاضي الفاضل » إمام الترمذ في مصر في القرن السادس يبحث عنه في حرف العين لأن اسمه عبد الرحيم ؟

الحق أنها صعوبة تضيع كثيراً من الجهد والوقت في البحث عن ترجمة علم معين ، إلا إذا ذلتها معرفة وثيقة بالرجال ، وكثرة الترداد على كتب المراجع والتراجم ، أو الرجوع إلى معجم « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلي من أدباء عصرنا وشعرائه ، فإنه يذكر العلم بشهرته أو لقبه في باب من حروف الهجاء ثم يحيل على الاسم الحقيقي الذي تجيء الترجمة تحته . ففي البحث عن « الحصري » مثلاً يجيء به في حرف الحاء والصاد - وهو ترتيبه بحسب المشهرة - ثم يحيلك على الترجمة في موضعها فيقول : انظر : إبراهيم بن علي . وفي البحث عن الثعالبي اللغوي يجيء به في حرف الثاء والعين ، ثم يحيلك على ترجمته في موضعها فيقول : انظر عبد الملك بن محمد .

وهكذا ذلل معجم « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلي صعوبة طالما شكنا منها الباحثون في كتب التراجم وتاريخ الرجال .

وهناك من كتاب التراجم من ترك طريقة ترتيب الأسماء حسب الحروف إلى طريقة الترتيب حسب سنى الوفاة ، كما صنع ابن رجب المتوفى سنة ٧٩٥ هـ في ذيله على طبقات الحنابلة ، وقد بدأ فيه بتراجم وفيات المائة الخامسة من سنة ٤٦٠ هـ إلى ٥٠٠ هـ . واختار سنة ٤٦٠ هـ بداية للوفيات لأنها السنة التي انتهى عندها ابن أبي يعلى الفراء المتوفى سنة ٥٢٦ هـ في كتابه « طبقات الحنابلة » ، ومن هنا كان كتاب ابن رجب ذيلًا على كتاب ابن أبي يعلى . وبالطبع اختلفت المعجمية في كتاب ابن رجب ما دام الترتيب على وفق سنى الوفاة . إلا أنه راعى الترتيب المعجمي أحياناً في ذكر وفيات كل سنة ، وإن كان لم يجر في ذلك على نهج واضح موحد ، كما أنه لم يجر في ترتيب السنين على التسلسل أحياناً ، ففي سنة ٤٨٨ هـ وبعد أن فرغ من ذكر وفياتها ، وانتقل إلى وفيات ما بعدها من السنين ، عاد ثانية إلى وفيات سنة ٤٨٨ هـ . ولعل الذنب في هذا ذنب المبنى نسخ له كتابه ، فلم تجئ وفيات سنة ٤٨٨ هـ في موضعها جملة واحدة .

ولعل أجاز ما يصح به الاستشهاد من كتب التراجم على طريقة الترجمة حسب سنى الوفاة كتاب « شارات الذهب ، في أخبار من ذهب » لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ، ففي آخر كل سنة هجرية من بداية السنة الأولى لهجرة الرسول عليه السلام إلى سنة ١٠٠٠ من الهجرة ، يذكر المؤلف أسماء من توفي في تلك السنة من الأعلام والمشاهير في كل فن وعلم ، لا يستثنى من ذلك خليفة ولا أميراً ولا وزيراً ولا قائداً ولا عاملاً ولا قاضياً ولا راوياً ولا فقيهاً ولا أديباً ولا شاعراً ولا ذا شأن في التاريخ الإسلامي ، خلال ألف عام . وقد يذكر تواريخ ميلاد أصحاب الوفيات ، ثم يترجم لهم تراجم أغلبها قصير موجز ، إلا أنه يذكر من أحوال المترجم لهم وآثارهم وأشعارهم وأخبارهم وأسماء مصنفياتهم ما يحمده ذكره في مقام لا يتسع لتطويل ، ولا ينسب لتفصيل .

ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب

إن كثيراً من أسماء الأعلام تتشابه في الخط أو الحروف المتشابهة . كالجيم والحاء والخاء ، والبدال والذال ، والسين والشين ، فإذا أهمل أو نسي نقط هذه الحروف فإن الأمر يختلط على القارئ فلا يدري إذا كانت حقيقة العلم « مزاحم » أو « مراجم » ، و « مسهر » أو « مشهر » ، و « نصير » أو « نصير » ، وقد سمي فعلا بهذه الأسماء واشتهر منها جماعة ، فما السبيل إلى تحقيق هذا ؟

وقد يتحد الاسمان في الحروف تماماً ولكن الضبط بالشكل يختلف في واحد عنه في الآخر ، فهناك « عمارة » بضم العين و « عمارة » بكسرها ، وهناك « عتيق » بفتح العين ، و « عتيق » بضمها على صيغة التصغير ؛ وهناك « عقيل » بفتح العين ، و « عقيل » بضمها ، وهناك مئات من الأعلام على هذا النحو الذي لا بد له من ضابط يضبطه . فما السبيل إلى تحقيق هذا ؟

وهناك أسماء أعلام لا يستقيم النطق بها صحيحة إلا إذا ضبطت بالشكل أو بالحركات مثل القاضى « ابن ممانى » الوزير المصرى فى عهد الأيوبيين ، ومثل « ابن حَمَّوِيَّة » الدمشقى من رجال القرن السابع الهجرى ، ومثل « ابن راهوييه » أو « راهوييه » أحد الأئمة الحفاظ فى القرن الثالث الهجرى ، ومثل الأديب اللغوى « ابن السيد البطلانيوسى » شارح كتاب « أدب الكتاب » والمتوفى سنة ٥٢١ هـ ، وغير هذه الأسماء التى لا بد من ضبطها فى كتب السير والتراجم والتاريخ حتى ينطق بها على وجه صحيح .

إن المؤلفين المسلمين لم يسكتوا أمام هذه المشكلة التى كادت تحدث لبساً كبيراً وخطأً فاحشاً بين الأعلام ، فنصبوا همهم لتحقيقها وضبطها وتوضيح الفروق بينها فى كتب خاصة قائمة بذاتها ، تكون مرجعاً للتحقيق والضبط . ومن أوائل المؤلفين فى هذا الباب الذى يدخل فى كتب التراجم من أوسع

أبوابه الإمام الحسن بن بشر الآمدي « ٣٧٠ هـ » فقد صنف كتابه الجليل :
« المؤلف والمؤلف » ليكون ضابطاً لأسماء الشعراء وكناهم وألقابهم ، وأضاف
إليه بعض أخبارهم وأشعارهم . فتجد فيه من الشعراء من اسمه « الحصين »
بالصاد المهملة ، و « الحصين » بالصاد المعجمة - المنقوطة - ومن الشعراء من
اسمه « حباب » مثل حباب بن عمار القائل :

يا نصر إنك لو أبصرت مشهدنا أيقنت أن إلينا ينتمى الكرمُ
نمشي إلى الموت مشياً فيه خطرة في باحة الموت حتى تنجلي الظلم

ومنه من اسمه « حباب » بالخاء المعجمة مثل حباب بن عدى الشاعر الفارس
القائل :

وأرى بنفسى في فروج كثيرة وليس لأمر حمّة الله صارفُ

والحق أن كتاب الآمدي هذا هو معجم نفيس لتراجم الشعراء حتى القرن الرابع
الهجري ، وضبط أسماءهم وذكر المتشابه منها مثل امرئ القيس بن حجر الكندي
الذي نعرفه جميعاً بمعلقتة التي أولها : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ،
ومثل امرئ القيس بن عابس بن المنذر الذي أدرك الإسلام ووفد على النبي
عليه السلام وأسلم ، ولم يرتد في أيام الخليفة أبي بكر ، وباهى بذلك قائلاً :

فلست مبدلاً بالله ربا ولا متبدلاً بالسلم ديناً

ومثل امرئ القيس بن بكر المعروف بالذائد . وقد عد لنا الآمدي تسعة
من هؤلاء المراقسة وترجم لهم في إيجاز ، ونسبهم إلى قبائلهم وذكر بعض شعرهم .
ومن الكتب النافعة في ضبط الأعلام وتحقيق مؤلفيها ومختلفيها ، وتبيين ما
يقع اللبس فيه منها ، كتاب « المؤلف والمؤلف » للحافظ عبد الغني بن سعيد شيخ

حفاظ الحديث النبوي بمصر في عصره « توفي سنة ٤٠٩ هـ » . وقد أعانته معرفته الواسعة بالأنساب على أن يضبط التراجم ضبطاً دقيقاً عول عليه أكثر علماء الحديث والإسناد والطبقات الذين جاءوا بعده .

وقد جعل عبد الغنى بن سعيد كتابه في أسماء نقلة الحديث ورواته كما صنع الآمدي من قبله في أسماء الشعراء .

والحق أن هذه الخطوة في ضبط أسماء المحدثين وتبيين مؤلفيها ومختلفيها كانت لا مفر منها بعد أن كثرت الرواة وتعددت الأسماء ، ووقع فيها من مظنة الوهم واللبس والاشتباه ما لا يؤمن معه الزلل .

فكان كتاب ابن سعيد بعد كتاب « المختلف والمؤتلف » للدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ امتداداً لطريقة علماء الحديث في ضبط أسماء المحدثين وتحققها إزالة لما قد يتسرب إليها من اللبس والإبهام .

والحق أن العمل الذي قام به عبد الغنى بن سعيد كان مما لا يقدر عليه إلا رجل مثله عالم بالأنساب ، خبير بالطبقات ، واسع المعرفة بالرجال . ولعل بعض النماذج من كتابه تصور لنا قيمة الجهد الذي بذله . فهو يقول في هذه الأسماء المتشابهة في الرسم : عيشون وعيسون وعيسون : « أما عيشون فهو عبد الله ابن عيشون الحراني ، ومحمد بن عيشون . وأما عيسون فهو عبد الحميد بن أحمد بن عيسى ، هذا يعرف بعيسون ، ومحمد بن عيسون الأنماطي . وأما عيسون ، فهو محمد بن أحمد بن عيسون البغدادى » .

ويقول في هذه الأسماء المتشابهة : عباس ، وعياش ، وعياس ، وعناس : « فأما عباس فكثير ، وأما عياش فجماعة ، منهم عياش بن أبي ربيعة ، وأما عياس بالياء المثناة من تحت والسين المهملة ، فهو أبو العياس ، يروى عن سعيد ابن المسيب ، وأما عناس بالنون والسين المهملة ، فهو عناس بن خليفة » .

وقد دخل اللبس إلى الأعجم العربية من ناحية تشابه الحروف من جهة

كالحاء والحاء ، ومن ناحية نقط الحروف وإهماها كالفاء بنقطة واحدة ؛ والقاف
بنقطتين من جهة ثانية ، ومن ناحية الرسم الإملائي من جهة ثالثة . فإن سفیان
كان يكتب من دون ألف هكذا : سفین ، ومعاوية كان يكتب من دون ألف
هكذا : معوية ، وقلة يقرؤها القارئ معوية ، فإذا ما أعجمت العين صارت معوية .
وكثيراً ما اشتبه على رجال الحديث اسم معاوية ومعوية ، أما الأول فمعروف ومنه
الخليفة الأموي الأول ، وأما الثاني فهو بالعين المعجمة ، وكان اسمه قبل الإسلام
عبد العزى أبو معوية ، فلما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ما اسمك ؟
قال : عبد العزى . قال : أبو من ؟ قال : أبو معوية . قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : كلا ! ولكنك عبد الرحمن أبو راشد . وهكذا أحاله النبي عليه
السلام من عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الرحمن ، ونقله من الإغواء إلى سبيل
الرشاد .

وبعد وفاة عبد الغنى بن سعيد ببضعة عقود من السنين جاء الخطيب البغدادي
صاحب « تاريخ بغداد » الذي أشرنا إليه غير مرة فألف كتاباً أسماه : « تلخيص
المتشابه في الرسم ، وحماية ما أشكل منه عن نوادر التصحيف والوهم » وهو كتاب
ضخم ذكر المالكي أنه في ستة عشر جزءاً ، وقال عنه ابن الصلاح إنه من أحسن
كتبه ، وهو مخطوط ذكر منه المستشرق بروكلمان ثلاث نسخ ، وأشار جورجى
زيدان إلى أن منه نسخة في دار الكتب المصرية في ٧٠٠ صفحة وفي آخرها نقص .
وموضوع الكتاب في جملة لا يخرج عن كتاب ابن سعيد ، من حيث تمييز الأسماء
التي تشابهت في رسمها ، واختلفت في تهجيتها ونطقها .

وفي ذلك القرن بالذات — أى القرن الخامس — ظهر كتاب « الإكمال ، في
رفع الارياب ، عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب » لابن ماكولا
المتوفى سنة ٤٨٦ هـ وكتاب « تقييد المهمل وتمييز المشكل » لأبي علي الجبائي
الأندلسي المتوفى سنة ٤٩٨ هـ وكان من أئمة الحديث في الأندلس . وعنوانا

الكتابين يدلان دلالة واضحة على موضوعيهما ، فهما لا يخرجان عما نحن فيه من تبيين التفروق بين الصور المختلفة لرسم الأسماء ، وما قد ينبجم عن ذلك من اختلاف نطقها .

وهناك قامت مشكلة أخرى في الأسماء المترجم لها ، فقد يتفق اثنان أو أكثر في اسم واحد أو في كنية واحدة أو لقب واحد تمام الاتفاق ، فلا بد من التمييز بينها ، وعدم الخلط فيها ، والترجمة لهذا على أنه ذاك . حتى لا يقع الالتباس . فمن الناس من يخلط بين الحسن بن عبد الله العسكري « أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٥٩ هـ » صاحب كتابي « الصناعتين » و « ديوان المعاني » وغيرهما ، وبين الحسن بن عبد الله العسكري « أبو أحمد العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وأستاذ أبي هلال » . ولقد جمعت بين الاثنين مشابهة الاسم نفسه واسم الأب والنسب والمعاصرة . ولكن لا بد من التمييز بالكنية ، فصاحب « الصناعتين » هو أبو هلال ، والثاني هو أستاذه « أبو أحمد » صاحب كتاب « التصحيف والتحريف » .

وفي المثل السابق رأينا الشخصين يتفقان في الاسم والنسبة ويختلفان في الكنية . وفي هذا المثل الذي نسوقه نرى الشخصين يتفقان في اسميهما واسم أبيهما ولكنهما يختلفان في النسبة ، وهنا يجب الاحتراس أيضاً حتى لا يضاف إلى واحد منهما ما ليس لصاحبه . فهناك أحمد بن نصر المحدث الهمداني المتوفى سنة ٣١٧ هـ ، وهناك أحمد بن نصر المحدث الداودي المتوفى سنة ٤٠٢ هـ .

وقد يحدث الاتفاق في النسبة كثيراً من اللبس عند من لا يتحررون الدقة والتحقيق ، فيقع الخلط في التراجم ، كما في نسبة « الحصري القيرواني » . فعندنا في الأدب العربي رجلاًان اشتهرا بهذه النسبة ، ولكن يجب الحذر في التفريق بينهما ، فأبو الحسن الحصري كان أديباً فقيهاً عالماً بالقراءات وتوفى سنة ٤٨٨ هـ وهو صاحب قصيدة :

يا ليلُ الصب متى غدُه أقيام الساعة موعده ؟
 رقدَ السمار وأرقه أسف للبين يردده
 التي عارضها كثير من الشعراء القدامى والمحدثين ، ومنهم الشاعر أحمد شوقي .

أما أبو إسحاق الحصرى القيروانى فهو صاحب كتاب « زهر الآداب »
 المشهور ، وقد كان معاصراً لأبى الحسن الحصرى وتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ومن هذه المشكلة قامت حاجة المؤرخين وكتاب التراجم إلى تأليف كتب
 فى الأسماء المتشابهة ، والألقاب المتشابهة ، والكنى المتشابهة ، للتفريق بينها
 والتعريف بكل واحد منها تعريفاً يطول أو يقصر كما يقتضيه المقام .

ولعل كتاب « المؤلف والمختلف » للآمدى الذى أشرنا إليه قبلاً كان من
 الخطوات الأولى فى هذا السبيل ، فهو لا يصحح الأسماء التى قد يطرأ عليها
 التصحيف والتحريف فحسب ، مثل البعيث ، والنعيت ، ومثل الشاعر بحير
 والشاعر بحير ، ومثل الشاعر بشر والشاعر بسر ، ولكنه يترجم لنا الأسماء المتشابهة
 فى غير تصحيف مثل أبو الغول الطهوى ، وأبو الغول النهشلى ، ومثل بشامة بن
 الغدير ، وحسان بن الغدير ، ومثل الشاعر كثير صاحب عزة ، والشاعر كثير
 صاحب ليلي الذى يقول فيها :

تصدت لنا ليلي ضراراً تجمداً لنزداد شوقاً بعد طول ضمان
 فهاضت فؤادا كان يرجى اندماله على عنت قد كان منذ زمان

ولقد جرى المؤرخ شمس الدين الذهبى « ٥٧٤٨ هـ » فى هذا المضمار ، فألف
 كتاب « المشتبه فى الأسماء والأنساب » ، وقد ترجم فيه لكثير من الرجال والنساء
 الذين تشابهت أسماءهم أو أنسابهم أو كناههم .

ولما كانت أغلب أسماء الأعلام فى التاريخ الإسلامى منسوبة إلى البلدان أو

القبائل أو الحرف والمهن كالصناعة والزراعة والتجارة ، فقد قام بعض كتاب التراجم المسلمين برد هذه الأنساب إلى أصولها . وأول من تنبه إلى ذلك عبد الكريم السمعاني المؤرخ المحدث المتوفى سنة ٥٦٢ هـ فألف كتابه « الأنساب » وقد رتب الأسماء فيه ترتيباً معجمياً على الألقاب والأنساب كالأمدي ، والإصطخرى ، والأوزاعي ، والياقبي ، والبطلوسي ، والتوحيدى ، والجرى ، والحليمى ، والحميلدى ، والحوارزى ، والحولافى وهكنا ، فإذا اشترك فى اللقب اثنان أو أكثر ذكرهم جميعاً وفرق بينهم وترجم لكل منهم مع ذكر تواريخ الميلاد والوفاة . وقد زاد عدد التراجم فى هذا الكتاب على أربعة آلاف ترجمة ، وفيهم كثير من رواة الحديث .

وقد طبع هذا الكتاب فى مجموعة « جب التذكارية » بطريقة الفوتوتيب لا بطريقة الحروف ، مما لا يجعل الانتفاع به يسيراً ، ولا الحصول عليه ممكناً ، على الرغم من شدة الحاجة إليه ، وعدم غناء المؤرخين والأدباء والباحثين عنه . وقد هذب المؤرخ عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ هذا الكتاب الثمين وأسماه : « اللباب ، فى تهذيب الأنساب » (١) ، وهو معجم مسعف لمن يريد البحث عن أعلام المسلمين حتى القرن السادس ، وقد أشار فى مقدمته إلى ما صنعه فى التهذيب ، وأشاد بفضل السمعاني لتحمله « العبء الثقيل فيه ، وجمع الأشبات المتفرقة إليه ، والتعب فى جمعه وتصنيفه » ، ولم ينس أن يشير إلى تعبه هو أيضاً فى تهذيبه « فلى فيه أيضاً تعب الاختيار ، وجودة الترتيب ، والبحث عن الحق ليعلم » .

ولن يفوتنا هنا - ونحن فى سبيل الحديث عن ضبط أعلام التراجم - أن نشير إلى الجهد الذى بذله المؤرخ ابن خلكان فى كتاب « وفيات الأعيان » فى تقييد الأسماء وضبطها بالحركات والحروف وضبط الحروف المتشابهة كالسين والشين ، والعين والغين وهلم جرا ، فقد سده بذلك العمل سبيلاً إلى دخول الوهم والتصحيح على

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً ، وتم طبعه كاملاً بعناية السيد حسام الدين القدسى .

الأعلام الإسلامية التي ترجمها في كتابه ، ولم يكتف بذلك الضبط في أعلام الرجال ، بل صنعه في أسماء البلاد والأماكن ، فيقول مثلاً في ترجمة أبي سليمان البستي الأديب الفقيه المحدث : « والبستي بضم الباء الموحدة ، وسكون السين المهملة ، وبعدها تاء مشاة من فوقها . هذه التسمية نسبة إلى بستان ، وهي مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة ، كثيرة الأشجار والأنهار » . وقد صنع هذا في الأعيان الثمانمائة فأكثر التي ترجم لها تراجم دقيقة ، في كتابه الذي كان موضع التقدير عند العرب والمستشرقين والمستعربين على حد سواء .

تلخيص كتب التراجم وتذييلها

كثيراً ما نصادف في ميدان التراجم الإسلامية كتباً كثيرة تلخص كتباً سابقة أو تهذبها أو تذييل عليها امتداداً لعصر أو استكمالاً لزمن ، أو استدراكاً لفوات . ولو أخذنا نعد هذه الملخصات والتهذيبات والتذييلات لطال بنا مجال القول إلى ذكر قائمة طويلة من أسماء الكتب والمؤلفين مما قد يكون هذا الكتاب الوجيز غير موضعه . إلا أننا لن نجد بدءاً من الإشارة إلى بعض الكتب في كل نوع على سبيل التمثيل لها والاستشهاد بها .

ففرى كتاباً مثل « وفيات الأعيان » لابن خاكان يختصره جماعة من الرجال منهم ابنه موسى ، وابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ . وبرى كتاب ابن عساكر في تاريخ دمشق وتراجم أعيانها يختصره ابن منظور الأفریقی صاحب « لسان العرب » المتوفى سنة ٧١١ هـ ، وبرى الإمام الذهبي المؤرخ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ يختصر كتاب « إنباه الرواة » على أنباه النحاة « للقطبي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ، وبرى كتاب « رفع الإصر » عن قضاة مصر « لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ يختصره جمال الدين بن شاهين في كتاب اسمه « النجوم الزاهرة » تلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة « وهو مخطوط في برلين ، ومفهوم بالطبع أنه

غير كتاب «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٨٧٤هـ. وقد يتولى المؤلف نفسه تلخيص كتابه ، كما صنع ابن تغرى بردى ، فقد قام هو نفسه بتلخيص كتابه : «النجوم الزاهرة» ، وأسماه «الكواكب الباهرة» ، من النجوم الزاهرة» ولا يعرف مكان وجود هذا المخطوط ؛ وكما صنع ابن تغرى بردى أيضاً فى كتابه الواسع فى التراجم الموسوم باسم «المنهل الصافى» ، والمستوفى بعد الوافى» فقد اختصره فى كتاب سماه : «الدليل الشافى» ، على المنهل الصافى» ؛ وكما صنع برهان الدين البقاعى المؤرخ المتوفى سنة ٨٨٥هـ فى كتابه : «عنوان الزمان» ، فى تراجم الشيوخ والأقران» الذى جمع فيه تراجم شيوخه وأساتذته وتلاميذه ومعاصريه من العلماء ، فقد اختصره هو بنفسه فى كتاب أسماه «عنوان العنوان» . وقد يكون المدافع إلى تلخيص كتب التراجم والسير جعلها أيسر فى التناول وأقرب إلى التناول ، فإن كثيراً من الناس يفرون من المطولات إلى المختصرات ، ويلجأون من المبسوطات إلى الملخصات . وقد يكون هنا من الدوافع - غير الاختصار - التهذيب أو حذف الأسانيد ، أو حذف ما لا حاجة إلى ذكره من أحوال الأشخاص ، كما صنع المؤرخ الكبير عز الدين بن الأثير «٥٦٣٠هـ» حين هذب كتاب «الأنساب» للسمعانى وسماه «اللباب» ، فى تهذيب الأنساب» . ومن كتب التراجم والأدب التى هذبت بحذف الإسناد منها كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ ، فقد هذبه المرحوم الشيخ محمد الخضرى من أهل زماننا ، وحذف أسانيد وعنعناته الكثيرة ، وأبقى فيه أخبار الشعراء المترجمين وأشعارهم بغير إسناد .

والحق أن مسألة ذكر السند إذا كانت واجبة فى كتب الحديث والمحدثين ، وإذا كان بعض المؤرخين كالإمام الطبرى المؤرخ المحدث المفسر «توفى سنة ٣١٠هـ» قد استعملها فى تاريخه الكبير جرياً على طريقة أهل الحديث الذين كان هو واحداً منهم ، فإنها فى كتب الأدب لا داعى لها ، وهى فى تراجم الأدباء

والشعراء وطبقاتهم لا تدعو إليها ضرورة مقتضية ، ولا حاجة ملححة .
 وأين الحاجة المألحة في أن يذكر هذا الإسناد في مثل الخبر الأدبي التالي في ترجمة
 الأعشى الشاعر الجاهلي : « أخبرني الحسن بن علي ، قال : حدثنا ابن مهرويه ،
 عن ابن أبي سعد ، قال : ذكر الهيثم بن عدي ، أن حماداً الراوية سئل عن
 أشعر العرب ، قال : الذي يقول :

نازعتهم قصب الريحان متكئاً وقهوة مزة راووقها نخضل ؟ ؟

وهل يحتاج مثل هذا الحكم الأدبي الموجز السريع إلى مثل هذه السلسلة من
 السند في الرواية ؟

وأين الضرورة المقتضية في أن يذكر الإسناد الآتي ، في مثل الخبر الأدبي
 التالي ، في ترجمة الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن مسعود : « أخبرني محمد بن خلف
 وكيع ، قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا
 يونس بن محمد ، قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن معمر ، عن الزهري ، قال :
 كان عبيد الله بن عبد الله ياطف لابن عباس ، فكان يعزه عزاً ؟ ؟

ألا تزيد ألفاظ الإسناد هنا وهناك على ألفاظ الخبر نفسه ؟

وهب قدر عبارة الإسناد لا يزيد على الخبر نفسه بل يقل عنه ، أفلا يكون
 طول سلسلة السند داعياً إلى الملل ، كما في رواية أبي الفرج الأصبهاني لوفود
 الشعراء كثير والأحوص ونصيب على الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ؟ ولعل
 الاستشهاد هنا يكون أدل على القضية ، فاسمع إسناد هذا الخبر كما رواه مؤلف
 « الأغاني » قال : « أخبرني محمد بن خلف وكيع ، قال : أخبرني عبد الله بن
 دينار مولى بني نصر بن معاوية ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن التميمي ، قال :
 حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن سهيل ، عن حماد الراوية ، وأخبرني محمد بن
 حسين الكندي خطيب القادسية ، قال : حدثنا الرياشي ، قال : حدثنا شيبان بن

مالك ، قال : حدثنا عبد الله بن إسماعيل الجحدري ، عن حماد الراوية « .
فنحن هنا أمام سند لحادثة واحدة بروايتين عن طريقين . ولكن السند قد
طال ، بما قد لا يؤمن معه الملال .

المعاصرة وأثرها في كتابة التراجم

قد تكون المعاصرة من أسباب الحكم الصحيح على المترجم لهم ، لأن وجود
كاتب السيرة أو الترجمة في عصر المدى يريد أن يترجم له يكون أدعى إلى الإحاطة
بكثير من نواحيه ، والإلمام بكثير من أطراف سيرته ، مما لا يتيح البعد في الزمن
والتطاول في المدى . وإن كان البعد عن عصر المترجم له يتيح للكاتب المؤرخ
أن يراه واضحاً غير مشوب بضباب المعاصرة الذي قد يغير معالم الصورة . ومثل
ذلك كالصورة الزيتية ، تراها على البعد أحسن مما تراها وأنت دان منها ، أو محقق
إليها ، أو مدقق النظر فيها .

والحق أن المعاصرة في التراجم قد تعين على جمع مواد الترجمة أكثر مما يستطيع
الزمن المتطاول أن يفعله . فإن سيرة للبطل المسلم صلاح الدين الأيوبي يستطيع
معاصر له كابن شداد « توفي سنة ٦٣٢ هـ » أن يكتبها أصدق وأقرب إلى الحق مما
لو كتبها مؤرخ بعد عصره . ولكن ألا يخشى أن تكون المعاصرة والقرب من المترجم
له سبباً إلى المجاملة على حساب الحق ، والمحاباة على حساب التاريخ ؟

ولا يشك أن السيرة التي كتبها الوزير لسان الدين بن الخطيب للسلطان محمد
ملك غرناطة هي قطعة من أدب التراجم رائعة ، ولكن ذلك لا ينسينا الحقيقة
الواقعة وهي أن ابن الخطيب الوزير كان يترجم لملك وسلطان أندلسي كان هو
وزيره ، ونحن لا نهم ابن الخطيب بالمحاباة أو مجافاة الحق أو الهوى ، ولكن
يستحيل أن نصدق أنه كان يبيع لنفسه أن يكشف له ضعفاً ، أو ينشر له عيباً .

ويحضرنا مثال ناطق على مجاملة المؤرخين لرجال عصرهم رغياً أو رهياً .
 فالمؤرخ الكبير أبو الحسن المسعودى « ٣٤٦ هـ » صاحب « مروج الذهب »
 كان معاصراً للخليفة العباسى « القاهر » الذى بويع بالخلافة سنة ٣٢٠ هـ ، ولكنه كان
 حريصاً كل الحرص ، بل كان مخفياً لواقع التاريخ حين ذكر عن الخليفة القاهر
 أنه « كان شهماً ، شديد البطش بأعدائه ، وأباد جماعة من أهل الدولة ، منهم
 مؤنس الخادم ، وبليق ، وعلى بن بليق ، فهابه الناس » وسكت المؤرخ سكتاً
 تاماً مطبقاً عما فعله الخليفة بأخيه لأبيه وسلفه الخليفة المقتدر . نعم ! سكت
 المسعودى إرضاء للقاهر أو خوفاً منه . ولم نستطع أن نعرف تعذيب القاهر لزوج
 أبيه وأم أخيه إلا بعد أن تطاول الزمن ، وأمن المؤرخون أو المترجمون الصولة . فجاء
 مؤرخ كابن كثير فى القرن الثامن « توفى سنة ٧٧٤ هـ » ، فوصف لنا ذلك الحادث
 الوحشى الفظيع ، ونحن ندعه هنا يتكلم بعبارة : « واستدعى بأمر المقتدر ، وهى
 مريضة بالاستسقاء ، وقد تزايد بها الوجع من شدة جزعها على ولدها — يعنى
 المقتدر — حين بلغها قتله ، وكيف بقى مكشوف العورة ، فبقيت أياماً لا تأكل
 شيئاً ، ثم وعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح ، ومع هذا كله
 استدعى بها القاهر ، فقررها على أموالها ، فذكرت له ما يكون للنساء من الحلى
 والمصاغ والثياب ، ولم تقر بشيء من الأموال والجواهر ، وقالت له : لو كان
 عندى من هذا شيء ما سلمت ولدى ، فأمر بضرها ، وعلقت برجلها ، ومسها
 بعذاب شديد من العقوبة ، فأشهدت على نفسها ببيع أملاكها ، فأخذها الجند
 مما يحاسبون به من أرزاقهم ، وأرادها على بيع أوقافها ، فامتنعت من ذلك وأبت
 أشد الإباء » .

ومن سوعات المعاصرة فى كتابة التراجم والسير أن كاتب الترجمة قد تحمله
 المجاملة إلى سياسة التبرير والتسوية ولو بالباطل ، فهو يلمس الأعدار الواهية
 لأخطاء من يترجم لهم ، أو يكتب سيرهم ، وقد لا يكون لهذه الأعدار نصيب من

حق ، أو حظ من صحة . فالمؤرخ سببط ابن الجوزى (١) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ يتلمس المعاذير لمظفر الدين بن زين الدين من أمراء إربل في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وقد كان مظفر الدين هذا كثير المصادرة والقتل لرجال ديوانه وكتابه ، ويبرر مؤرخنا سببط ابن الجوزى هذا بقوله : « ولعله اطلع منهم على خيانات فرأى أنخذ الأموال وإنفاقها في أبواب البر والقربات أولى » .

وعلى الضد من ذلك قد تكون المعاصرة سبباً في التشنيع والتشهير ، وذلك حينما تؤمن السطوة ، وتتقى الصولة من الملوك والأمراء ، ويقع التنافس بين النظراء والأقران ، كما وقع بين السخاوى المؤرخ والسيوطى المؤرخ المعاصر له ، وقد أشرنا إلى ذلك قبلاً . وكما وقع بين السخاوى وبين البقاعى من أقرانه ومؤرخى عصره ، فهو يغمزه حين يترجم له في الجزء الأول من « الضوء اللامع » ويقول عنه في أول الترجمة : « ودخل بيت المقدس ثم القاهرة للاستفتاء على أهلها ، وهو في غاية من البؤس والقلة والعري . . . » ويقول عنه بعد ذلك : « ووقائعه كثيرة ، وأحواله شهيرة ، ودعاويه مستفيضة ، أهلكه التيه والعجب ، وحب الشرف (٢) والسمعة ، بحيث زعم أنه قيم العصرين بكتاب الله وسنة رسوله . . . » ويمضى فيقول عنه : « مع رميه للناس بالقدف والفسق والكذب والجهل ، وذكر ألفاظ لا تصدر من عاقل ، وأمور متناقضة ، وأفعال سيئة ، وحقد تام » .

وهل ننسى ونحن نؤرخ للتراجم والسير في الأدب العربى ما صنعتته المعاصرة والمنافسة بين أبى حيان التوحيدي والصاحب بن عباد من رجال القرن الرابع الهجرى ؟ لقد قدم أبو حيان على الصاحب بالرى وصحبه ، فلم يحمده صحبته ، ولم يحمده صحبة أبى الفضل بن العميد الأديب الوزير المشهور . ومن هنا كانت

(١) ليس هو عبد الرحمن بن الجوزى المؤرخ صاحب « المنتظم » و « صفة الصنفة » والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ وإنما هو ابن بنته ، واسمه يوسف بن قرأوغلى ، واشتهر بكتابه « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » الذى طبع لأول مرة في العالم بالهند سنة ١٩٥١ .

(٢) الشرف هنا : معناه الجاه .

أقوال أبي حيان وأخباره عن الصحاب بن عباد موضع الأخذ بالحنذر الشديد .
 واللوحة التي رسم بها أبو حيان هذا الوزير الأديب الخطير تبعث على الحيرة
 حينما نجد لوحة أخرى مغايرة كل المغايرة بريشة كاتب آخر معاصر للصحاب ،
 وهو الثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » ؛ فأبو حيان يقول في تصويره للصحاب بن
 عباد : « . . . والناس كلهم يحجمون عنه لجرأته وسلاطته ، واقتداره وبطشه ،
 شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطى كثيراً
 قليلاً ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد القبيحة ، قريب الطيرة ،
 حسود حقود ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ،
 أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل
 خلقاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوة وبغياً ، وتجبراً وزهوا ، ومع هذا يخدمه
 الصبي ، ويحلبه الغبي » .

والثعالبي يقول في تصويره له : « ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح
 عن علو محله في العلم والأدب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرد به بغايات
 المحاسن ، وجمعه أشنات المفانير ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله
 ومعاليه ، وجهد وصنى يقصر عن أيسر فواضله ومساغيه . ولكننى أقول : هو
 صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا
 حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق .
 وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم
 فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعهم مقصورة عليهم ؛ وهمته في مجد
 يشيده ، وإنعام يمدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه .. » .

إن كاتب التراجم لا بد أن يكون على حذر شديد حينما يقف أمام هاتين
 الصورتين المتناقضتين لشخص واحد ؛ بريشة كاتبين لا يعلم إلا الله ماذا كانت
 دوافعهما وبواعثهما ونفسيتهما وهما يكتبان ، كتابة ستبقى من بعدهما على الزمان ...

فهرس

صفحة	
٥	مقدمة المؤلف
٩	الفصل الأول : التراجم ونشأتها
٩	التراجم في القديم والحديث
١٤	التراجم بين العلم والفن
١٨	نشأة التراجم في الأدب العربي والداعي إليها
٢٣	التراجم الذاتية
٢٧	الفصل الثاني : السير
٣٠	السيرة النبوية
٣٥	السيرة الشعرية
٣٩	الفصل الثالث : أنواع كتب التراجم
٣٩	التراجم العامة الجامعة
٤٦	التراجم حسب العصور
٤٨	التراجم لسنة لسنة
٥٠	التراجم في كتب التاريخ العام
٥٣	كتب الطبقات في التراجم
٥٣	طبقات الصحابة
٥٤	طبقات الفقهاء

صفحة

٥٦	طبقات المفسرين والقراء
٥٨	طبقات المحدثين والحفاظ
٦٠	طبقات النحاة
٦٢	طبقات الشعراء
٦٥	طبقات الصوفية
٦٧	طبقات القضاة
٦٨	طبقات الأطباء
٦٩	طبقات الفلاسفة والحكماء
٧١	تواريخ البلدان وتراجم رجالها

٧٧	الفصل الرابع : حول كتابة التراجم
٧٧	تراجم النساء
٨٠	التراجم بين الطول والإيجاز
٨١	التراجم بين الإنصاف والتحامل
٨٤	التحقيق في كتب التراجم
٨٦	العناية بتاريخ الميلاد والوفاة
٨٨	مصادر التراجم
٩٢	ترتيب الأعلام المترجمة
٩٥	ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب
١٠٢	تلخيص كتب التراجم وتنديبها
١٠٥	المعاصرة وأثرها في كتابة التراجم
١٠٩	فهرس الكتاب

1870

1871

1872

1873

1874

1875

1876

1877

1878

1879

1880

1881

1882

1883

1884

1885

1886

1887

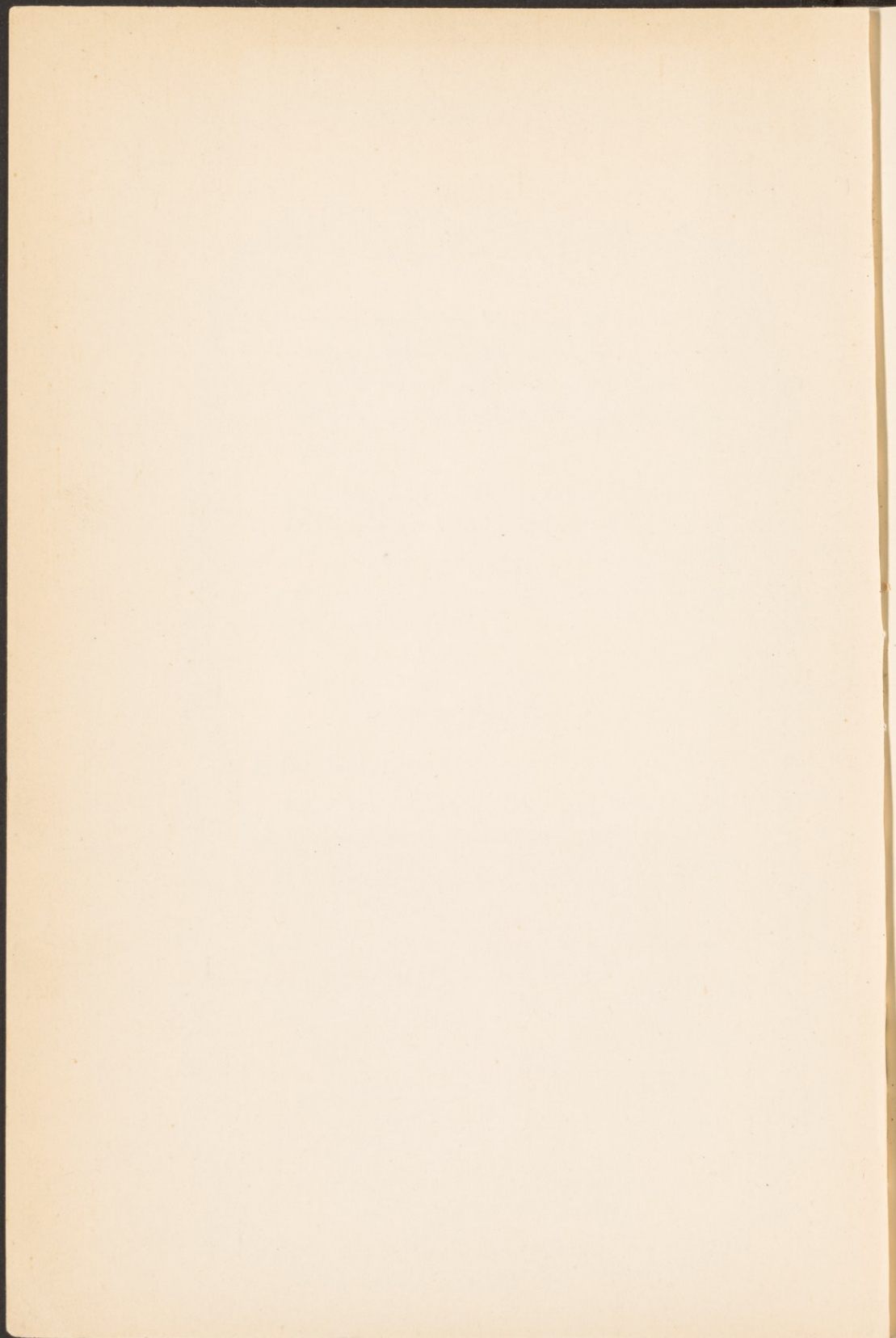
1888

1889

1890

1870
1871
1872
1873
1874
1875
1876
1877
1878
1879
1880
1881
1882
1883
1884
1885
1886
1887
1888
1889
1890

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف
في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥



Date Due

المجموعة			
المقدمة			
الفن			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			
المؤلف			
الموضوع			
الرمز			
الملاحظات			

Demco 38-297

الموشحات والأزجال .

• في الفن القصصي :

المقامة ، الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة ،
الترجمة الشخصية ، التراجم والسير ، الرحلات .

• في الفن التمثيلي :

المسرح ، الفاجعة والمأساة ، الملهاة .

• في الفن التعليمي :

النقد ، الحكم والنصائح والأمثال ، الخطب والمواعظ ، منظومات الشعر .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY
WITHDRAWN

مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول أافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدهته العربية في تاريخها الطويل . . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب العربي على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللتنصتة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

برنامج المجموعة

● في الفن الغنائي :

الغزل ، الرثاء ، الوصف ، الهجاء ، المديح ، الزهد والتصوف ،
الموشحات والأزجال .

● في الفن القصصي :

المقامة ، الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة ،
الترجمة الشخصية ، التراجم والسير ، الرحلات .

● في الفن التمثيلي :

المسرح ، الفاجعة والمأساة ، الملهاة .

● في الفن التعليمي :

النقد ، الحكم والنصائح والأمثال ، الخطب والمواعظ ، منظومات الشعر .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY
WITHDRAWN

NYU - BOBST



31142 02687 7541

CT21 .H3

al-Tarajim wa-al-siyar